

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190185

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP-730-28-01-11-11

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. 421 Accession No. 10.

Author فرید ابو حنیفہ

Title السجلی - سید / بیع

This book should be returned on or before the date last marked below

بجته التأليف والترجمة والنشر

محمد فريد أبو حديد

المُحْصَلُ سِتْدَرْبِيعَة

مطبعة المؤلف والترجمة والنشر

١٩٤٤

كان اليوم من تلك الأيام الطيرة القليلة التي يجود بها شتاء الصحراء . وقد أسفر وجه السماء بعد أن جلل المطر أعواد الخزامى والشيخ ، وصفا الحو ورق السيم البارد ، وسطعت أشعة الشمس رفيقة دفيئة تغمر الرمال الصغراء النديّة ، وتلمع تحتها الحداول الدقيقة المنعرجة .

وكان وائل التغلي — وائل بن ربيعة فارس تغلب وسيدها — سير في جاب الوادى العشب الذى صُرت فيه خيامه ، ويجول بصره في التلال الجرداء المحيطة به ، لس عليها إلا أعواد من الطرفاء الكالحة ، وأشواك الموسج ، تبسم فيه الزهرات الزرقاء ، متوارية كأنها تخجل من ثوبها المقدد . وكان في سيره يتجه إلى حدول يترقق مأؤه من تَلعة شجراء عالية ، ويساب متلألئاً إلى بطن الوادى ، حتى يغيب في روضة ملتفة الشجر ، يهاوج حولها العشب الأخضر البارض مع ريح الشمال ، وتراقص أعوادها في رفق ، وتتلامس كلما هت عليها نفحة من السيم الفاتر .

وتبسم البدوى للمنظر الفاتن . ولكن ابتسامته كانت حافطة لم تنفج لها العبسة العميقة التي كانت تعقد جيئنه الواسع . وتبسم نفساً عميقاً ملأ به صدره من الهواء الصافى ، ومضى في سبيله نحو

الروضة بحطى قصيرة ثالثة . سار كأن في قلبه ثقلا يوء به ، وكان في صدره اضطراباً يصرفه عن أن يهتز لجمال ذلك اليوم الديدع . وسار في أثره عبد أسود ، يترقب حركته في خستوع ، ويبطر إليه بطرف عينية في حذر ، ويتلفت نحوه كلما بدرت منه لفنة ، كأنه يخشى أن تفوته إشارة من مولاه ، أو تشرذ عن سمعه همسة . من همساته . وسار من ورائه كلب يتمسح بأذياله ، وفد وصع دبله بين فخديه ، وأطرق برأسه بشم الأرض حياءً ، ثم يرفع عينيه لحطة نحو سيده متردداً ويعود إلى إطراقه يشم الأرض في مواطئ قدميه . ولما اقترب السيد من الروضة ، وقف هيبه ثم قال ولم ينظر إلى ورائه : « يا غصين ! » ، فأسرع العمد إليه حتى وقف على خطوة منه وقال : « لبيك ! » .

فقال وائل : « جهر لى طعاما وشرابا ، واتمعى إلى هناك ! » — وأشار بيديه نحو قلب الروضة — وسار بغير أن ينظر نحو العمد فحنى هذا رأسه ، ثم سار مسرعاً نحو البيوت المنتشرة في أعلى الوادى ، حول القبة الحمراء العالية ، المشرقة على الحى . كان وائل يبدو لمن نظر إليه شاباً يتألق على وجهه الأسمر رونق الشباب ، وهو يسير مرفوع الرأس . كأن قوامه النحيل عود رمح سمهري ، وينظر بعينين لامعتين تبصان يبريق فيه قسوة ، وقد انعقد ما بينهما في عسة . كأن جيئنه الواسع لم ينفرج يوماً عن

سمة ، وكان أنفه الدقيق الأقنى ينتهى إلى فم رقيق الشفتين ،
وشارب أسود الشعر مفتول الطرفين ، تشذمه شعيرات قاعمة في
وسطه قد تمارجت فيها حيوط بيضاء ، وأخرى سوداء ، وكانت
لحيته الخفيفة تدور حول وجهه ، لا ترى العين أثرأ من الشب في
شعرها الأسود الجمعد .

وكانت عمامته البيضاء تنهى من وراء نظرف مسسل يبلع مجمع
كتفيه ، وتدر من تحتها ذؤانان من شعره الأسود تلمعان بما
عليهما من دهن وعطر .

وسار وائل بخطاه البطيئة نحو الروضة الحراء ، والكلب يسير
من خلفه ، تسمع في أذناه .

ولما بلغ السيد مدخل الروضة وقف هيبه ينظر فيما حوله ،
كأنه يعحص ما على الرمال من آثار ، ثم أشار إلى الكلب نظرف
سيعه المتدلى من حمائله وصاح به : « ههنا يا عساف ؟ » ، ففهم
الكلب الإشارة وأقى حيث أشار إليه سيده ، وعوى عواء خفيفا
كأنه يبين أنه قد حصع للأمر .

ودخل الرجل الروضة ، حمل يمشى في مساربها ، ينظر ما بها
من آثار ، ويميل إلى كل زهرة يراها فيتأملها مليا ، ثم يمضى عنها
متباطئا ، ويمد يده إلى الأغصان المتدلية عاشا بأوراقها حيناً ،
وبازعا بعض أعوادها حيناً ، ثم أوغل في الروضة حتى بلغ مكانا

عاليا ، قد طللت أشجار ملتعة ، حممه من ليل المطر ، وسقطت عليه الأوراق فكسسه فراشا وثيرا فهدها بقوسه ، ثم ألقى القوس إلى جاب ، وألقى كنفاته إلى جاب ، ونشر شملة كانت عليه فجعلها فوق الأوراق الحافة ، ومال فاصطجع عليها فوق جنبه ، متكئا رأسه فوق كفه ، وقد ثنى دراعه ، وجعل يتأمل السماء من حلال. النصوص المنديلة ، ويتلقى شعاع الشمس المائل داخلا إليه من بين الجدوع والعروع .

اعتاد وائل ، كلما نزل القطر وعسل الفئار عن أغصان الروسة وسالت به حداول الوادى ، أن يذهب إليها ليمتع نفسه للذات الحياة . وكانت مهجة الشباب تنحرك فيه عند ذلك فيلتبس ندماهم ويفضى معهم يومه يطاردون متع اللهو ؛ يرى فى كل زهرة ثغراً باسماء ، وفى كل عصن رطيب قواما مائسا ، ويأنس للأحاديث ، ويطرب للفناء ، ويعود بعد اليوم القصير طروبا بمنلى القلب بالبشر . ولكنه لما خرج فى ذلك اليوم كان على غير عهده بنفسه . خرج إلى روضته وحيداً يحس فى قلبه حزنا كامنا لا يتبين مبعثه ، وخيل إليه أن العالم يفيض حوله ببضات تطن فى أذنيه ، وأن السماء الصافية تخفى وراء أنوارها الشفافة أسراراً غامضة ، وأن الصحراء التى تمتد تحت ناظره إلى الأفق المستدير ، ليست كما عهدها فضاء فسيحا بسرح فيه نصره مطمئنا ؛ بل كانت تزدحم وتضطرب حتى تسكاد

لا تدع له فيها حلوه ، وأن النسيم اللبل الذي يملأ صدره منه يريد نفسه القلقة ضراما واحتلاحا .

خرج في ذلك اليوم وحده إلى روصته التي طالما شهد محالس أسه وطربه ، وإلى طالما أمتع نفسه بلذات الحياة في ظلالتها ، وكان يطعم لو استطاع أن يحذ في حماها السادج ذلك السلام الذي أعجزه في نوادي قومه ، أو في فناء منزله الفسيح ، في الوادي الأعشب . ولكنه عند ما اضطجع في طلال الروصة وحدها أعلى صخرة من المحامع المردحة المصترنة .

لقد كانت نوادي قومه متدحين تصيب نفسه وتملؤها صجرا ، وكان فناء منزله يبعث فيها وحشة وكآبة ؛ ولكن تلك الروصة نفسها قد خيب أميته فلم يحذ فيها إلا وحشة وكآبة .

وتوارد عليه ، وهو مصطجع تح طلال الفصون المتدلبة ، صور من حياته حرب في خياله سراعا . فتذكر حروبه ومواقفه عند أراط والكُلاب . ثم موقفه الكرى عند حل حرارى حيث بهاوى نرسانه ليلا نحو البيران الموقدة على رؤوس الحمال ، وأحاطوا بأهل اليمن فطموم حتى لم تقم لهم بعد قاعة ، فانتصب منهم ربيعة وألقت يرم عن رقابها ، وتوأتب بعدهم مقاعد السيادة في هضاب نجد . إنه هو الذي اجتمعت حوله الكلمة ، فعاد عرب الشمال جميعاً من ربيعة ومصر حتى انتهى بهم إلى النصر

البارع ، وطرد الساده من ملوك اليمن من تلك الروع التي رعو ،
 بها من قبله أحوالا . فما مال قائل ربعة اليوم تتحدث في واديه
 عن كبرياته ، وما مال بنى عمه من بكر يتخذونه ويسكر عليه
 شأنهم ما سمح به نفوس آثامهم طائفة عف ذلك الانصار ؟ أينكر
 قومه سابق فضله ويمارعوه في الحق الذي بايعوه من قبل عليه ؟
 أيمسسون السيف الذي قصى به على قائل اليمن قد صدق في عمده
 من طول ما صر عليه من السلام ؟ بل إنه هو العقوق الذي يدهمهم
 إلى هذه الهمسات الحاققة الى تبلغ أدبه ، مهما بالغ الهامسون أن
 تكون فيما بينهم سرا ، وهو الحقد علأ صدور منافسه ، ويحملهم
 على تناسي فضله والنجهس له .

وتنه وائل من حواطره على صوب رفرفه بين الأعصان الى
 فوقه ، فحرك رأسه فأتراً وأحس شئ من الارتياح إلى أن يخلص ،
 ولو حيناً من شجوبه المصطره ، فرأى بين الأوراق قبره تنتقل
 بين العروع في حذر كأنها تريد أن تهبط ، وتخشى ذلك الدحيل
 المصطجع تحتها ، فجعل ينأملها حيناً ثم رأى اضطرابها فزى لها
 وفام من مكانه منسللاً يحادر أن يمسف في حركته حتى لا يعرفها ،
 ويطر نحوها يرقب حركتها فرآها تنظر إليه في دعر واضطراب ،
 بهم أن تطير هاربة فتقرر عن عصها ، ثم يرد فتزل على عصف
 آخر وتصرصر وتنقق في خشوع كأنها تتوسل وتندى الحنين .

وفما هو في ذلك سمع صوب ررفة صعيقة عند قدميه .
وتلفت حوله إلى أطراف الأعصان المتدلّية ، فرأى عش القنبره
وفه فرخان صغيران لا ينفطى جسميهما إلا الرّعبُ الأخضر ، وهما
تطلّمان نحو أمهما ويحركان حناحيهما العاريين في لهفة إلى ظلّ
حناحيها ، خفق قلبه رقةً لها وأسرع في حمة فرمع قوسه وكنانة
سهماه ، ثم وضع ثملنه على كتفه وراجع في هدو- حتى خرج من
طل الخميّة ، فرأى القنبره تهوى سدفة نحو فرحيها وتدرج إليهما
في العس ررف علهما بحناحيها وهي لا تزال تنظر في قلب إلى
الحبال القائم من وراء الأعصان . فبسم انفسامة حريّة ، ثم سار
عها إلى حميلة أخرى يلتمس في ظلها مصجماً . وقال وهو سائر كأنه
يحدث نفسه : « لقد تحرمب المسكينة في حماي » .

ولكنه ما كاد يطق بهذه الكلمات حتى حقق قلبه وعادته
حواطر أخرى أشد حنقاً . أدتدكر ما يتحدث به فومه ، إذ بلغوا
من الحرّاة عليه أن أطلقوا ألسنتهم فيه بما لم يكونوا من قبل يجروون
عليه . إنهم صاروا يتحدثون عنه أنه يحمي الوحش والطير مبالغة
مه في الكبر والعنوّ . ويتحدثون عن تلك المراعى التي لا يستطيعون
أن يلتمسوا فيها صيداً من طي أو أرب أو صب لأنه قد حى تلك
المراعى وسدها في وجوههم . ويتحدثون عن الماء الذى لا يستطيعون
أن يردوه إلا بعد أن تصدر عنه إلهه ، وعن كلاً الأرض الذى

لا يقدرّون على أن يُطلقوا فيه إبلهم ، لأنّه قد حى ذلك كله وحارّه
 لنفسه لا يبيح لأحد فيه شيئاً إلا بإذنه ، وسعد أن يسأل منه
 ما يرضيه . لقد تحدث قومه بهذا كله ، ووصفوه بالطغيان والكر
 والسّطر . وكأنّهم تناسوا أن ذلك كلّّه كان من حقه عليهم إذ قد
 ارتصوه وتطوعوا به له إقراراً بمصله عليهم واعترافاً له بسلطانه فيهم .
 وفيما كان يناجى حنقه بهذه الذكريات الأليمة سمع صوب كلمه
 يسبح ، فوقف يطرّ نحو مدخل الروضة ليرى من يكون ذلك
 الحرّى الذى يقترّب من روضته وقال فى نفسه : لعل هذه آية
 جديدة تطلعه على ما داخل قومه مد حين من الحرّاء عليه . لقد
 طالما جاء إلى هذه الروضة وأمر كلمه أن يُقضىَ عند مدخلها ، فما
 كان أحد يجرؤ على أن يقترّب منها ؛ فكان ذلك الكلب إذا جلس
 عند أسفل التلعة نظر إليه اناس من بعيد وتيامنوا عنه أو تياسروا
 حتى لا يستبيحوا حى سيد ربيعة المحيف وائل بن ربيعة . بل لقد
 كانوا يجعلون اسم ذلك الكلب علماً يذكرونه فيما بينهم إذا أرادوا
 التحدث عن بطلهم الباسل الذى ملأت هيئته القلوب حتى لا يمر
 اسمه على ألسنتهم إكباراً له وتقديساً .
 أوقد نجرأت تغلب أو مكر حتى لم يبق فى نوسها رهة
 من الكليب ؟

فاتحه نحو مدخل الروضة هابطاً على جانب الربوة مسرعاً

والغضب بملأ قلبه ، لا ترى عيناه إلا مُحرره السماء . وقد عزم على أنه لن يصبر بعد ذلك ، بل ليَجْمَلَنَّ سطوته طاحنة حتى يصرف قومه عن تلك الهمسات التي يهمس بها الحاسدون فيما بينهم إذا حلا بعضهم إلى بعض . لقد جاءت إليه الأسماء يسعى بها صحبه الأوفياء وآله الأقربون ؛ فهو لا يجهل ما تنفل به الصدور عليه ، وإن كانت الخشية من بطشه لا تزال تخفى النيران تحت سنار واهٍ من الرياء والبسات الرائقة . إنه لن يستطيع بعد ذلك صبراً على مثل هذا الرباء ، بل لا بد له أن يفنك وأن يسطوحي يعلم هؤلاء أنه ما زال السيد الذي طالما امتدحت ألسنتهم عن ذكر اسمه ، واكنفوا عند ذكره أن يطقوا باسم الكليب . وسوف يكشف للناس جميعاً أنه ما زال السيد الذي لا يحروّ واحد على أن يملأ منه عييه .

ولما بلغ مدخل الروضة تلفف حوله فلم يجد أحداً ، ولما رآه الكلب أقبل نحوه يعوى منالماً وهو ينلوى حتى اقترب منه وجعل يسمح به ويصص بدبه ، ثم ذهب عنه يسبح في حق متجهاً إلى جانب الروبة . فسار وائل في أثره حتى بلغ قبة الربوة فأشرف على الوادى المجاور ، فإذا به سيل بأعناق الإبل الحمراء ، ومن ورائها فارس يعرفه — هو جساس بن مرة بلا شك -

جساس أخو امرأته جليلة بنت مرة سيد بني بكر . هو أحو تلك الزوجة الحبيبة التي اصطفاها ونعم بالحياة في بيتها الهادئ . أحوها

حساس فارس بنى بكر الباسل الذى يسير مثل الرمح الرديى
أنف أشم . كان لا رى فى قنائل ربيعة من يلىق أن يكون
عليه سيداً .

لينه لم يكن أحاً لزوجته ، وليه لم يكن أما للشيخ الحكيم
مره بن دهل بن شبيان . فإنه لو لم يكن فى حمى تلك القرابة لعرف .
وائل كيف يكسر ذلك الألف الأثم ، وكيف يحنى تلك الهامة
المرفوعة ، وكيف يجعله يفصى تلك المين الحريرة الى يحملق بها
فى وجهه إذا كله . إنه لا يقدر على أن يمنعه من الرعى فى مراعيه ،
ولا يقدر على أن يجعل إله تنظر حتى تصدر إله هو عن الماء لأنه
ان الشيخ مره ، وأخو روجنه الحبيسة جليلة .

ولكنه شاب حقود كاره . لم يكفه أن يسوق إله الى الحمى
الدى حماء بل يراه يتعمد أن يجتاز بالروضة النى لم يجرؤ أحد من
قبل أن يمر بها ؛ وها هو ذا يتعمد أن يصرب كله نفوسه الغليظة .
لا ! لا ! فما كان وائل ليصر على مثل هذا إذا أراد أن تنق له فى
قومه صولة أو كرامة .

وكان حساس لا يخفى جرأته ومحبته ؛ فإنه لبتكلم فى نوادى
نكر ، ويحرّى قومه على أن يتكلموا فيه ويسخر منه فى غيسته ،
ويشر تحكات السخرية فيهم إذا جلسوا فى سامرهم حول النيران .
وهو يحرص عليه ويشر النفوس ، ويوشك أن يوقد عليه بين

الناس فتنة عمياء . بل لعله هو الذى بدأ هذا السخط الذى تنقل إليه أحباره من كل جانب ، ولعله هو الذى فتح عفول القوم إلى التذمر مما كانوا من قبل لا يرونه إلا حقاً وعدلاً . وقف وائل ينظر إلى ذلك الساب المنحدى ، وثأرب فى قلبه الحفيظة ، وعزم على أن يسه وأن يصرب ، وإلا كانت عاقبة أمره وبالاً .

وكنتم وائل عبطه ورل عن الروه ، ولم يعد إلى روصنه الى كان قد أرمع أن يقصى فيها اليوم وحده يلتمس رهة تهدي من عليه التأثير ؛ بل عاد إلى بيته سرع الخطى وقله يهور وأفاسه بصطرب ؛ وقد مثل أمام عينييه مناظر الصراع القتل الذى بوشك أن يقع سه وبين العارس الحرى .

ولما بلغ مصرب حبابه المشرفة من فوق أعلى الوادى ، لم ملتفت إلى من كانوا فى فناءه المسيح من عبيد وأتباع ؛ بل سار مسرعاً والكلب يجرى وراءه لاهثاً ، وفى نظراته اللامعة ما يشبه أن يكون رهواً كأنه أحس أن سيده العظيم قد ثأر من أحل ما أصابه من ألم صربة القوس الى كادت بدق صله .

ولما بلغ حيمته دخل إليها ، وتلفت فى جوابها ، ثم نادى فى شيء من العنف « جليلة ! » . فهض امرأته مسرعة وأقلت نحوه سسم ، ولكن نظراتها إليه كانت تم عن دهشة ؛ فقد كانت تمد له رق الخمر ، وتهى له شواء من الكبد والسنام لى ترسله إليه

مع العبد الفصيص في الروضة كما أمره مند حين قصير . ولم تكن تتوقع عودته قبل أن يمضي النهار أو أكثره ؛ فقد عودها إذا ذهب إلى الروضة أن يقيم فيها حتى تنحدر الشمس إلى الغرب ، وتطول الظلال . وأحس قلبها أن في رجوعه إليها بعد ذلك الحين القصير دليلاً على أمر خطير أزعمه لم يكن في حسانه . وبطرب إلى وجهه . فأدركت أنه قد عاد إليها غاضباً ثائراً ، فقد كانت عيائه محترتين تقدحان شراً ، وحيل إليها أن التمرات القائمة في وسط شاربه تهتز في قلق . وأرادت أن تزيل ما عنده من الشجن الثائر ، حتى لا تدمر منه نادرة قاسية ؛ فإن واثلاً إذا ثار لم يملك بواده الدموية . كان لا يعبأ أن يقر بطن فرس عرير ، أو يطيح بسيعة رأس بعض عبيده الساكنين الأبرياء ؛ حتى إذا ما سكن عصه ، وعاد إلى نفسه ، استولى عليه الحزن ، وكاد يخنق نفسه أسفاً . ولم يكن أكبر ما يحملها على أن تذهب ما في نفسه أنها كانت محروص على فرس أو تشفق على عبد مسكين ، بل كان الذي يعميها هو هذا الهم الذي رأت عليه بواده مند حين ؛ فقد أحسنت تغييراً عظيماً اعتراها في تلك الأيام الأخيرة ، وكان قلبها يُعصر عصرأ فاسياً كلما رآته يقضي اليوم والليل كاسفاً متمللاً لا يكاد يدوق نوماً ولا راحة . وتقدمت نحوه ووضع يديها على كتفيه في وداعة وقالت في صوتها الرخيم :

— مرحباً بك ! لقد كنت أعد لك طعامك .

فنظر وائل إلى وجهها نظرة سريعة ، ثم بدد على وجهه ابتسامة ضئيلة لم تقاومها الثورة العبيقة الى كات تموج في صدره ، ثم حول نظراته عنها وأمسك بيديها برفق فأراحهما عن كتفيه ، ونزع قوسه عن كنفه فهدف بها في حلق إلى ركن من الحيمة ، ثم قذف بكساة سهامه على الأرض في عنف حتى قففت ، وذهب إلى بطع من الجلد في صدر الحيمة فجلس عليه ، واحتبى بسيفه ونظر إلى الخارج وهو ساهم صامت . فقرت جلييلة منه وجلس إلى جانبه ، وجملت تعبت بيدها حيناً في شملنه ، ثم قالت بصوت خافت :

— أراك مهموماً .

فانفجر وائل ، ولم يطق حبس عيظه وقال :

— لقد طال صبري ، ولم يبق بعدد في القوس منزع .
قاوم نفسي ، وكبحت جماحها من أجلك ، من أجلك أنت يا جلييلة .
ولكن ها هو ذا يتأدى ولا يزيد إلا جرأة على .
فأطرقت جلييلة صامتة ، ووقع في قلبها من يكون ذلك الجريء الذي يقصده زوجها . فلم يكن في قبائل بكر كلها من يجروء على سيد ربيعة إلا أخوها جساس بن مرة الذي لا يعرف لنفسه سيداً .
فأطرقت حريئة وقلبها ينفوس إلى أعماق صدرها وتواردت عليها الخواطر سراعاً . لقد طالما سمعت بما يقوله أخوها في نادى قومه

من التعرض لزوجها الحبيب ، ولطالما غاضبته وأنحت عليه بلومها .
ولطالما توسلت إليه وهي باكية لكي ينجب ما يوجب القطيعة
بين زوجها وقومها ؛ فإن تلك القطيعة لم تكن لتجرت في هولها
حساساً أخاها وحده ، بل هي داهية عظيمة نحط ونترع وتمرق
الشمل كله . فلو كان حساس يجيئ بها على نفسه لما كان ذلك يطعن
قلبها مثل تلك الطعمة ؛ فإنه في عيد مكبر لم يدع في قلبها رقة
عليه ؛ ولكنها كانت حناية عليها وعلى قومها جميعاً ، قوم أبيه
وأخوها من بكر ، وقوم روحها وابن عمها جميعاً من تغلب .

وأفاقت جليلة على صوب زوجها يهدر فائلا :

-- إن أحاك حساساً يتحدث عنى حديث الكاره المستهري ،
ويجرتى على هؤلاء الأحداث الذين كانوا أطفالا في أفنية آبائهم
يمرحون ويلعبون ، عند ما كانت المعارك الدامية تثور من حولنا ،
إذ نحاهد أقيال اليمين وملوكها في جبال العالية من تهامة . كنا
بنى لهم المجد لكي يصعروا خدودهم للعرب جيما ، فإذا بهم اليوم
قد أذهلهم البطر والجهل ، فحسبوا أنهم أصحاب ذلك المجد الذى
ينفخ أوداجهم كبراً . أما وأصاب وائل ثن لم يبتة ذلك الأخرق
لألحقنه بالعبيد ، ولأجعلنه عبرة لأصحابه الآخرين .

وفرت جليلة يدها إلى غديرتيه ، وجعلت تقتلها بأصابعها ،
ثم قالت بصوت هادئ :

— هوّن على نفسك يا ابن المم أمر جساس ! ما هو إلا منك
وما أنت إلا منه ؛ وما أنت وما يسمى به إليك الواشون ؟ قرب
واش لا يريد إلا فسادا .

فقال وائل ولا يزال حاقا :

- لا تعتذرى عنه يا جليلة ، فلقد كنت تعدليه فيما يقول .
الم تأتي أباء ما قلت له ؟

فمظرب إليه جليلة في شيء من العرع . إن الأنباء تبلغه ، وهي
تعلم صدق ما يقول . ولكنها لم تياس ، وأرادت أن تسعين بما تعلم
أنه في قلبه من حبا . فقالت كأنها معاتبه :

- ألا يرضيك منه عمك وأبساء عمك ؟ إياك تعرف ما
يحملون لك جميعا من المودة . فهلا أكرمهم بالتفاضي عن جهل ابن
عمك الصغير ؟

فانتفض وائل حتى نزع عذاره من بين أناملها وقال في عصب :
- أتفاضي عن جهله ! ومن لي بتحمل ما يبيع ذلك من
جهل من يشاركونه ؟ هل كنت لأسيخ أن يجعلني هؤلاء ملهاة لهم
إذا مالت الحمر برؤوسهم ويتخذون اسمي في أسماهم المابثة هدفا
لسخريتهم وعيبتهم ؟ لا وحق مناة ! ما ذلك من شأن وائل ..
ثم قام خارجا ، ولم تجد كلمات جليلة إلى قلبه سبيلا . فقامت
امرأته وراءه وهي دامة العين وسألته بصوت متهدج :

— إلى أين يا ابن العم ؟ إنك لم تطعم شيئا منذ الصباح .
 فلم يجبها ، بل سار وهو يرفع رداءه في اضطراب ويلقى السملة
 على كنفه في عصب ، ووقفت جليلة حيناً تنظر في أعقابه والحرن
 يمصر قلبها عصراً ، حتى بعد واحتقى عن عينيها ، ثم أسرع
 فألقت عليها إزارها وحرحت مسرعة نحو منازل أبيها .
 ولما صار وائل في العناء الواسع بين حيامه دعا عمده خاء
 النصيب نحوه مسرعاً . فصاح به في عصب :

— الرباب !

فأسرع المد إلى جاب من الوادى ، وسار وائل في خطوات
 واسعة لا يلوى على شيء وكلبه يتبعه ويشم آثاره ؛ فلما بلغ آخر
 ثنية الوادى وقف ينظر المد حتى أقبل يجرى وفي يمينه لجام فرس ،
 مرفوع يده إلى رأسها لمسح عليه ووثب على ظهرها وهمر جانيها
 هوثت به لا تكاد تلمس سطح الرمال . وكانت كميناً غمراء محجلة
 لا يرى الرأى منها إذا انطلقت إلا ساقين مثل ساقى النعامة تدمها
 من أمام وإبطلين كأنهما لظبي تسبح بهما من خلف ، وكأنها بينهما
 طائر يخترق الهواء .

وكان وائل بن ربيعة يهمر فرسه في عنف على غير عادته فإنها
 ما كانت تحتاج في ركوبها إلى من يحثها . ولكن الشجون التي
 كانت تجيش في صدر الرجل كانت تلمس منفذاً في عنف الحركة

فلم يُطو في ركوبه هدوءاً ، ولما خرج من الوادى عرج متياسراً
إلى براح من أرض صلبة قد عطى المدر سطحها ، فكانت العرس
في عدوها تثير حولها ثارا من الحصى المتطار ، وكأنها أحسب ما
في قلب راكبها من الثورة ، فأحسبها بوسا لا سالى بها أين تفع
حواقرها . وما كاب إلا هنيها حتى بلع وائل همسة عالية فهذا
من سرعته وبرك فرسه تملو جانبها على رسلها ، ولسكها وننت على
الحام الصخرى الوعر كما يب الوعل الأعصم ، حتى علت طهرها
السيح . وكان العتب الأحصر يطفى سطحها المنموج ، ولا تزال
قطرات الماء من أثر الأمطار تلمع بح ضوء الشمس في تنايا
الأعواد ، وفي نفور أرهاق الأفاقي والعرار ؛ فلأ وائل صدره من
الهوا ، وأرحى الحبل للفرس ومسح عرفها بكفه فاطمأ في سبرها
ومصب بين البلاع والوهاد ؛ تملو وتهبط في هواده كأنها تتحرك
نما يحسه من إرادته سيدها . وقلب وائل نظره في أرجاء الأفق
الواضح ، وكاب السماء الرقاء صافية بعد أن محلب أمطارها كأنها
قد غسلت من أدرانها . ودب السلام رويدا إلى قلبه ، واهرح
عقده جنبه ولا حب على وجهه بسمة الارتياح . ولما عاد إلى
صوره ما حدث في الصباح لم تعد إليه عصيته ؛ كأن المنظر الوديع قد
هددها وقطع حممها . وعاد إلى صوره حساس بن مره أحي

زوجه الحسنة فساءل نفسه : أما آن لحساس أن يدع تلك الوسواس
التي نوغرها صدره ؟ ولكنه لم يحس في نفسه تلك الكراهة الى
ملأته غبطة في الصباح لذلك الشاب الفارس الحرى ، بل لقد
كان في فراره قلبه سمثل بسالته فيعجب به وينمى مودته . إن
مثل حساس من يحمى الظهر عند اللقاء ، ويشقى النفس من دماء
الأعداء ، وإن مثله من بركن إليهم الملوك في رد عندهم ، والدب
عن حياضهم . وهو أحو حليلة العريه ، وما كان أولى به أن
يكون إليه حبباً ومه قريباً ! فإذا كان قلب حساس قد امنلاً
غيره مه وحفداً عليه ، حتى أطلق فيه لسانه ؛ فإن عطه قد
يسلّ وغيره قد تهدأ . إنه لا يحاول إذا لقبه أن يحفى عليه
ثوره . ولكن ذلك أحف كنداً وأسلم عاقبة من أولئك الذين
يلفونه بالسحاب ، فإذا تولوا عنه سلقوه بالسهة حداد . لقد عى عند
ذلك لو عاد حساس إليه صديعا يؤسه بمودته وبسدملكه بسجاعنه .
وما زالت هذه الحواطر حتى أراحت عن كاهله نعطه فتتنفس
نفساً عميقاً ، وشعر بالأشجان التي تصطرم فيه تمساعد معها ، ودب
إليه دبيب من السلام . وسار على رسله قلب طرفه في الأقوى
الصافي وفي جواب الرنى الخصرء .

وفيما هو في ذلك لمعت أمام عينه لمعة على مرمى سهمين ، فرأى
بياضاً ببرق ثم يساب فإذا هو بطون الظباء وهي تتب في خفة من

حملة فوق طريقه لتقصد إلى أخرى آمنة إلى جانب من الحصبة ،
صرح صرخة وهمر فرسه وحرك اللجام إلى قصدها فانطلق
لهرس تعدو نحوها ووب عساف يهدر من حلقه حتى سمعها .
ما كاد الطلاء تحس المطاردة حتى حرحب بهم على الحصبة
مسيحة نعلو وهبط من ناشر من سطحها ومطامن ، والحواف
ندف بها قداما . وقد مدب رؤوسها حتى نلعت فرونها الطويلة جانب
لهرها . وعدا الكلب والحواد في آثارها ، وطالب المطاردة في
بامن وباسر حتى بدا شيء من الردد على الطلاء ، فمعرف
ناول أن يحد لها عاصما ، ولكن الحصبة المسحقة لم يكن بها صحر
وقل في حاسه ، فانطلقت تعدو في فرع حتى أدرك الكلب عساف
يحا منها كان أنقل الررب وسا ؛ فجعل يهر في وجههما وسوان
ن حولهما وهما يحاوران ومحاو لان الخلاص منه حتى أدركه
برس وأصحب على مرمى السهم من الطيبين . فحدث وائل قوسه
مدد الرمية إلى أقربهما إليه ، وهو يجادر أن يصيب كلته الناسل
مبته ، فإذا بالكس بجر وقد أصاب السهم مفصل كنفه ، ثم
دد رمية أخرى فإذا بالنعجة تحر على حطواب منه وقد وقع
صل ما بين عينيها . وهمر وائل فرسه همزة فوننت به حتى
اب عند الرمييتين وهما تفحصان الأرض بأظلامهما اللعاق .
ل الفارس عن جواده في حفة وجرد سيمه فدفع على الطيبين

ومال عليهما نفحص أعصاءهما في إعجاب .

ثم رفعهما إلى طهر جواده فربطهما في سرحه عن يمين وشمال ،
ثم مسح على رأس كلته وصاح به :

— عشاء طيب با عساف !

فمصبص الكل بذنه وبطر إليه كأنه يصاحكه ، ثم وثب
الفارس فوق طهر جواده فاستوى عليه ومسح بيده على رأسه
وعرّفه وأرّخى لحامه وأحد يتغنى بعض شعره .

وقضى وائل في عودته ساعات سير على هِسْنَة وهو نقل بطره
في العشاء ، وقد هرب به بشوه أسننه كل شجوبه الثائرة ، حتى مال
الشمس محدده إلى الأفق الغربي ولمع تحتها الأرهاق تنال من
بياض في صفره ، وحره في ررقه ، حتى بلع حاب الهصّة مما يلي
روصه ، فمدا له أن يُعَرِّج عليها ليذهب إلى الخجلة التي آوى إليها
في الصباح لنظر إلى أفراح القبره التي أجارها في حماه قبل أن يعود
إلى داره . ورأى في طريقه إلى الروصّة إبلَ حساس صادرة عن
الماء ، ورأى جساساً في عُذُوفِ الوادي على فرسه يسير في أعقابها .
وكان في يده رمح قد ركزه في ركابه ، فنظر نحوه نظره قصيره
فراه ينظر نحوه ، وحيل إليه وهو على تلك المسافة المعيدة أن
بطرته لم تخل من تحدّيه . فصرف وجهه عنه ولم يرد أن يصكر في
أمره حتى لا يمكر الصفاء الذي شمله من جولة اليوم .

ودخل الروسة حتى بلغ موضع الخجلة فنزل عن جواده وسار
في حفة حتى رفع أطراف الفصون المتدلّية .

وكان يغنى بصوت خاف وهو يحكى ليلتمس موضع الأفرح :
نصره ندعو بالفرّ قنبر هاتمة بين رياض الحجر
لا يرمى حوماً ولا تقري فأب حارى من صروف الحدر
إلى بلوع يومك المقدر

وما كاد يدير نصره بين الفروع حتى هالة ما رأى : كان
المنى هناك محطوماً في أديال الفصون المتدلّية ، وكانت الأفرح فيه
مدكوكة حتى سويت بالأرض واحتلّطت دماؤها القليلة بأعواد
القتى والأوراق المساقطة من الشجر .

إذن لفد دخل الروسة دحبل تمعد أن يسبيح حماء ويَطأ
القصره المسكينة التي آو - إليه .

فاعندل وتطلع فما حوله وعاد إليه الفصب أشدّ مما كان . ولم
يشكّ في أن ذلك الحرىء الذى اعندى عليه لم يكن سوى حساس ،
فهو وحده الذى يستطيع أن يحرّو على إيماءه مثل هذه ليظهر بها
ما في نفسه من استخفاف . فهو الذى آذى كله في الصباح ، وما
كان أحرأه أن يكون هو الذى حطم عش هذه القنبره المسكينة
وحطم أفرأها الزعب تحت عينيها .

ولما رفع نصره إلى أعلى الخجلة رأى في الفصون القصية مواضع

قصم و ررع ، فألقى بطره على الأرض فإذا آثار إبل ورأى إلى حاب
موضع العس رشمَ حف على الرمال ، فراد بعينه أن حساساً إنما
هو الذى استباح حماه فذهب لركب وهو ممثلى من الفيظ ، وقد
عزم على أن يعصل فيما بينه وبين العى الحرى ، ؛ إذ صار الأمر
بنتهما إلى ما لا استطاع معه احتمال ولما هم بالسرا لا حب له من .
خلال أشجار الروضة ناقة تطفل الأوراق الحصراء من أعالي
الفصون ، وتسرى مساطنة بين السحر سرع من عصوبها لغفاب ،
فناملها فإذا هى ناقة بعاء صئلة البدن هرلة حذاء الطهر لس لها
سام . ولم تكن هذه من إبل حساس . فقد كابت إبله حمراء عالية
بهر أسامها من حصوبه المرعى وعدوة المورد . فوقف ناملها
حتى راب من الروضة وذهب امخلط بإبل حساس .

فأسرع وائل فى أثرها حتى أدركها ؛ ثم وضع يده على معص
سيفه ليعقبرها . فما كان لأحد أن يرسل ناقته حتى نطأ أرض
الروضة ، وما كان وائل لبرك صاحبها من بعد بغير عتاب .

ولكنه سمع صوتاً من ورائه سادى فى فطاطة :

— « عمل ما كليب لا تفعل ! » .

فرفع وائل يده عن سبعة ويطر فرأى من ورائه حساسا ينظر
إليه فى عصب و برق فى وجهه بما اعتاد من نظرات التحدى .

فقال له معسدا : أهده الناقة لك ؟

فقال حساس : « أحل ! هي ناقتي » .
قال كليب : « لسب ناقتك . فإني لم أرها من قبل » .
قال حساس : « هي ناقة صيب نزل عدى وهي في جوارى » .
فقال كليب وقد عاد إلى القيص على سيفه : « لقد وطئت حاي » .
فقال حساس متحدياً : « وناقة صبي في حاي » .
وصاح به كليب : « أحمي على ما حساس ؟ » .
فقال حساس : « إنها ناقة صبي » .
فكظم كليب عبطه . وقال مساهلاً : « لقد هممت أن
أقتلها . ولكن احذر أن تعود تلك الناقة إلى الرعي في مرعى » .
فقال حساس وقد صحك ساعراً : « مرعاك ! كأننا لا يحس
لنا أن رعى إلينا في هذه الأرض ! إنا هي أرض نكسر كما هي
أرض نغلب ولم يورثها لك أبوك ربعة » .
فتألم كليب لذلك العول الذي لم ينعود سماع مثله وعلا الدم
في وجهه ، ولكنه تمهل في الجواب ثم قال : « أنصحك
أن سعل هذه الناقة عن إبلك » .
فأجاب حساس متحدياً : « لن أبعدها ، وسرعى مع إبل
وحي مناه » .
فتقدم كليب نحو الشاب وقال مهدداً : « أيها الفنى ! وحق آلهة
وائل لئن عادت هذه الناقة إلى الرعي هنا لأضمن سهمي في ضرعها » .

فصحك حساس مره أخرى ساحراً وقال : « لئ وصع
سهمك فى صرعها لىكونن لى شأن » . وصمت قليلاً ثم قال من بين
أسنانه : « لئ وصعت سهمك فى صرعها لأضعن رعى فى لسنك » .
ثم همر مرسه ومضى وهو يطمئن الأرض برمحه وعباده
تقدحان شررا .

فانقص كليب كأنما لدعته نازئ وقال وهو يطر فى أبره : « آيها
الفتى الوقح ! ويل لك ! » .

فوقف حساس والنف نحوه رافعاً رأسه وقال : « سرى
لمن الويل يا كلب » .

فقال كليب وهو يكاد ينفجر من الغيظ : « وحى ميا
لأ كحن من سهمك أهذا تحاطب سيد ربيعة ؟ » .

فوقف حساس أمامه وجهاً لوحه وقال ساحراً : « ما قلب
سهمك ولكن الحى يصرعك . نحن الذين سودناك . لم تسدنا
بعبيدك بل سدب لأننا عرزناك . حارنا معك حتى انتصرب
ننا . أريد أن تجعلنا عبيداً لك ؟ » .

فحنى كليب أن يخرج العى فى قوله إلى أكثر من ذلك
فاكتفى بأن قال : « سأعرف كيف أؤدبك » .

ثم مضى عنه مسرعاً حتى بلغ مضارب حيامه .

وكاتب حليمة واقعة عند باب الباب ، فلما وقعت عنها عليه
عرفت في وجهه الغضب ، فارتاعب وأضطربت فؤادها ، وسارت
مسرعة نحوه ووجهها ينم عما يشور في نفسها من المحاوف .

ولم يأخذها بين ذراعيه كماداته إذا أقبل . ولم تهتم هي بالاندفاع
إليه كماداتها عندما تراه راحماً ، بل وقعت على خطوه مسه ،
وحطت تفرك يديها لتريل عنهما أثرأ من الدهن فهما ، ثم قالت
وهي تحاول إخفاء ما بها :

« أرى صدا كريماً يا ابن عم » .

فقال وهو يعلق سيفه في عمود الحيمه في وحوم : « شرئ
مستطيرئ وحق مباء ! » .

فقلت وهي تمنع نفسها من إظهار الجرع : « هل عصب لأمر ؟ » .
فقال متجهما وقد نظر إليها : « أترين يا حليمة أحداً من
المرء يمنع مني جاره ؟ » .

فقلت : « ومن يجرؤ على ذلك إلا أن تكون عمك مُرّة .
هل حدث بينكما أمر ؟ » .

فقال كليب : « لم أر أباك اليوم » .

فقلت حليمة في شيء من الارتياح : « إذن هو جساس
مرة أخرى » .

فقال كليب بحقد : « وشتمني » .

فقال جليلة وقد أقلت عليه فطوقته بدراعيها : « دع حساسا
ما ابن عمى . إنه فى أحرى ! » .

فقال كليب ، وهو نخلص من دراعها : « أحرى ؟ أعلى
أنا تكون حرقه ؟ » .

فعاد جليلة إلى التعلو به وقال : « أتوسل إليك ما ابن عمى .
أهيا الحبيب . أتوسل إليك ألا تقطع رحمك » .

فقال كليب : « هو الذى تقطع الرحم ، أرمى أن مهان
كليب ما جليلة ؟ » .

فقال جليلة وقد أخذ وجهه بين يديها : « أعف عنه من
أحلى ، أعف عنه يا كليب ! هو أحمى فأكرمنى بالنجاور عن
خطئه . عِدْنِي نَحْ مِنْهُ . أَتَعْمَلُ ؟ » .

فسك كليب ولم يح ، بل حاول أن نخلص من يديها .
ولكنها تعلف به ، واستمررت نوسل ورحو .

ونظر إليها كليب فرأى دمة سحدر على حديها وهى منجهة
إليه بمينها المغرورقتين . فردد لحظة ثم صمها بين دراعيه فهو
وقال لها : « لقد ظالما عموب عنه يا حليله من أحلك » .

ثم قلها بين عينيها ، ومضى محدثها فأوصى إليها عما كان
من جساس .

كأب الشمس قد مالت للغروب ، وصف الأفي الغرى بلون
القرمر ، ولم يبق من شعاعها إلا فلولٌ دهسة تنعتر في أذيال
سحابه بمضاء تسر قرب الأفق متماطئة ، وكان يسم المساء المقل
سهب يارداً من صوب الشمال ، يحمل معه طلائع يرد ليل الشتاء في
صحراء النمامه من بلاد محد .

وحلس مُرَّة ، تسح بكر ، وحوله سبوح المشائر يحددون
عن أحداث اليوم ، وعن عرمات الغد ، والمسد محمون الأحطاب
من بطون الوديان وبكدسونها أكداسا في وسط حلقة الخلوس
لبوقدوا منها البران .

وأقل حسَّاس بن مُرَّة سير مساطئا ، حتى اقترب من
أبه الشبح ، ثم وقف وراءه وهو صامت ، وقد استند على رمح
المركور في الرمل الناعم اللامع .

فنظر إليه الخلوس في صمت ؛ إلا أنه مُرَّة ، فقد أطرق ولم
يلتفت إليه ، وعلت وجهه سحابةٌ خبيطة من كآبة ، كأنه لم
سرح إلى مقدم أنه الشاب في ذلك الوقف .

وكان حساس مقطَّب الجبين ، تلمع عيناه لمعة الغضب ، وكان

شعره الطويل الأسود مصغوراً في عداثر ملونه ، هتر مع النسم فوق كتميه .

وكان طويل القامة ، دقوس العود ، لس في لجه فصلة من شحم مُدَوَّر ملامحه ، فدا في وقعنه تلك كأنه رمح يكي على رمح ، وذب تقاطيع وجهه حاده قويه ، تحمف حول فم مقصن تكاد شغناه لا تنفر جان .

وقطع جساس السكون بعد قليل ، فقال بصوب أجس :
« أما لهذا الهوان من آخر ؟ » .

فنظر الخلوس إلى أنه السبح ولم يتكلموا ، واسطروا ما نقوله الشيخ لانه القاصب .

وكان الأب مُعْنِبا في جلسنه ، جمع ركنيه في حبل دقوس مربوط من نحب إبطيه ، فلم يحلّ حنونه ، ولم يلتف وراءه ، بل قال بصوب هادي لا تكاد سمع ، وقد راد وجهه عبوسا : « دعنا اليوم من مُهرائك » .

فامعجر الفنى عند ذلك ، وقد أساء الغضب ما يحب لأبيه من يومير فقال : « إني لن أصبر على ما تصبرون عليه ، هأندا قد أندرب » .

حل أبوه حنونه ، وانتفض كأنه قد أحس وحره الأمة ثم طام ودار بوجهه إلى ولده وصاح به : « ماذا تقول ؟ »

موقف الشاب مرفوع الرأس في شيء من التحدى ، وقال
وصوبه لا يزال أحسن حافاً : « أقول إني لن أصبر على الصيم .
هذا رجل بسومكم الحسف ولا تنحركون به . قد وضعتم أعناقكم
إليه لبطاها بقدمه . ولكي لن أكون معكم في ذلك العار » .

فقال أبوه ، وقد اريد وجهه : « من سمى تقولك أيها العمي
الحاهل ؟ أسمى سيد ربيعة ؟ أسمى الرجل الذي حفظ فومك من
العار ، وحام من الذل ؟ أسمى وائل بن ربيعة ؟ » .

فقال الشاب ولا يزال في صوته دين الحقد والغضب :
« سم أسمى وائل بن ربيعة . أسمى كليب بن ربيعة ، ذلك الذي
محملكم عسداً ، ولا بعدكم إلا أتناعاً وحداً » .

فسرب في الجلوس صخرة مكبومة ، ولا سيما من شيوخ بني
تغلب ، وبحرك بعضهم يرد القيام ، عصاً مما ألحى الفى من
الإهانة بكليب .

فأشار إليهم التيسح بيده أن يصروا ، فهدأ الصخرة ،
وسكن اللفظ ، ونظر القوم إلى التسح ، وقد اعتدل أمام ولده
الناصب ، كأنه يريد أن يبطس به .

ولكنه تحول بعد لحظة قصيرة وكأنما حال في نفسه خاطر طارىء
صرفه عما كاد بهم به من عقاب اسه ، ثم نظر إلى القوم وقال لهم
وهو يحاول أن يجمع شعوره ، وبكسح العاصفة الثائرة في صدره :

« يا إخواني وأناء عمي ! احمّلوا ما فاله هذا العي يذهب مع
الريح ، فما هو إلا من جهل شب ، لس بدرى ما حو هذا
الأمر عليه . »

ثم نظر إلى ولده ، وقال وهو منجهم :
« أمها الآن المنكود . لقد صرت على أكثر من أداله .
ولكى أراك تبادب ، وأحب أن أعلمك شيء لس تعلمه ، أعلمك
رحع عما بوغر صدرك ، وبوسك أن يقطع بك وبين أسك . »
فأطرق العي وحسح قلبلا ، عند ما سمع قول أسه ، واعدل
في وقعه ، وقد أحس شيئاً من الحجل ، لما أظهر من الجدى
لستخه . ولحظ أبوه ذلك فالان من عاسنه ، كأه قد أمّل أن
استلين قلب أسه بالحجة والموعظة ، لأنه كان يعلم أن الزهنة لن
تجمع ذلك الآن من الإقدام على عظام الأمور .

قال صرّه موحها كلامه إلى سبوخ فومه وهو ربد أن تسمع
أسه ناريحاً لم شاهده : « لقد علم ما كان من سطوه فائل اليمن
ننا ، وإدلالهم إيانا ، أنام كما لا تملك لأنفسنا أمراً ، ولا نقوى
على رد اعتداء . »

فقال شيخ أبيض اللحية كان أقل الحلوس اكراثا بما بحرى
حوله : « فما بمناء ، لقد كانت قبائل اليمن تجتاح مهماة ، لا تلقى
من ردّها . »

قال مره منجهاً إلى ابنه : « صدق أبو عامر . لقد كاب
مدحج نسومنا الحسف ، ولا تمنع لنا كلمة في مقاومة عسفها ،
حتى أنى ذلك الشهم الذى سحدث عنه هذا الحدث القبيح ،
فاحصع عليه كلمة قومك ، من بنى شتان ، ومن بنى أيهم بكر ،
ومن بنى عمهم تعلب ، فوقف بهم يوم حرارى ، حتى قادم إلى
النصر والعرو والمحد » .

فسرب في الجمع عند ذلك هممة الارباح ، وعاد أبو عامر إلى
الكلام فقال :

« إلى لآذكر النار الى أوقد فوق حرارى نهدي بها
وتمنع عندها . كان ذلك كأنه بالأمس القرب ، ولقد سنى وائل
ابن ربيعة نفوسا وحى مناه من العدو المنذر » .

فعاد مره إلى الحديث فقال :

« وإنا لو أعطينا وائلا أموالنا وأنفسنا ، لكان ذلك بعض
حمه علينا ، لحفظه أعراسا ، وإعلائه أمرا » .

فرد الجميع موافقين : « إن يد وائل بن ربيعة علينا لا تكافأ
عمال » .

فتحرك حساس في عيظ وانفجر بمد أن عجر عن كتمان
ما في نفسه وقال وهو يهدر :

« وحى مناه ما أراكم إلا تنطقون بما لا تطوون عليه الجوامع .

إسكم لتعلمون أنه يمنعكم الماء حتى يُصدر عنه عبيده ، ومنعكم الرعى حتى تمتلئ بطون إبله ، ويحصى عليكم الوحش في القفلة فلا تستطيعون أن تصيدوا بها طيباً أو تختشوا صائاً . وأن صدوركم لتتمرق من القبط ولكنكم تحمونه من خوف بطشه » .

فتقدم مره نحوه مهدداً ووضع يده على مقص سبعة وصاح به :
« لا كس أيها المَقْشُوق ! » .

فأسرع إليه أبو عامر وأمسك بده بجمعه ووقف حساس حيناً ينظر إلى شبحه وهو يرتعش في اضطرابه ثم حول عنه وجهه وأسرع عنه داهياً في صمت وعناء مهدحان شرراً .
وكان الليل في أساء هذا قد أقبل وأرحى على الآفاق سدوله ، ولمب أنوار النيران على وجوه القوم وهم جلوس حولها مطرقين يستمعون أن يرفعوا عنونهم نحو الشيخ في ثورته . ولم يحد مرته في نفسه ارتياحاً إلى اللقاء في نادى قومه بعد أن كان من ولده ما كان . ولم يدّر كيف يستطيع أن يداوى وقع تلك الألفاظ القاسية إلى ماه بها الفنى في ثورته ، ورأى الأمور تتعقد وتنجهم .

ولم يدر ماذا ينبغي له أن يفعل ولا أين يحب عليه أن يقف . فقد فتح جساسٌ عليه باباً من الفتنة ما كان أحب إليه أن يبقى مغلقاً . ولم يدر كذلك ماذا يحمل القدر المقبل في طياته بعد أن أقحم ذلك الشاب المنكود في غضبته ذكر بكر وتقلب . فإن تكرراً

ونفل من صلب أب وقد أقاما معا على حالى العُسر واليسر ؛
 فمادا يحفى لها الغد فى طياته ؟ هذا جساس بن مره ينادى بكراً أن
 تتور ، وما كانت تغلب لترضى أن يطعم أحد فى ملكها ، وإن
 كان من جيرانهم ونسب أبيهم . فلم يجد الشيخ فى حيرته هذه إلا أن
 يذهب عن الجمع لعله يهتدى فى حلوته الى ما نصىء له تلك الظلمات .
 وكان الهواء قد برد ولف الشيوخ عليهم الماء . فلما تركهم
 مره قاموا فى أثره الى السيوب يسدقون وراء حذرهما الصوفية
 السمكة ، ويم كل منهم الحديث مع عشيرته فى حلوه من الرقاء .
 وأقلل مره نحو بنه ، وكان يسير مطرقا ، يفكر فيما عساه
 يفعل مع ولده الفاص . حقا لقد ذكره بآثر الأمير فى قومه ،
 وبين له أسس سادته بينهم ، ولكنه كان لا يزال يتوجس
 حيفة من طنته وحمقه ، فقد عرف جساساً سريعاً الى الفتك ،
 مقداماً على الشر ، لا يتردد فى أن يلجأ إلى سيعه إذا ظن أن أحداً
 اعتدى على كرامته ، أو مس كبرياهه ؛ وعرفه لا ينال من يكون
 ذلك الذى يقدم على عداوته ولا يما عما يحجر إليه عصه .

عرف الشيخ أن ولده لن يصرف عن كليب إذا تعقد
 الأمور بينهما ، ولن يثنيه عن الانتقام لكبريائه شئ ، ولوسالت
 حماء قومه فى حرب تشب بين بنى العم من جراء فعلته .

جعل مُرّة يقلب وجوه الرأى فيما يصنع مع ابنه ، حتى يصرفه

عن التعرض لكليب . حتى لقد فكر في أن يسعده عن منارل فومه ، حتى لا يجمع منه وبين الرجل الذي داخله الحقد عليه .

ولم يسه من تفكيره ذلك إلا عند ما سمع صوب استه حليبه تنكلم مع أمها في الحمة من وراء الستار ، وتبين من صوتها أنها كانت تتحدث وهي مراعاة نأثره النفس . فدخل إلى منه ، وكان بنا رفيع الأركان ، قد أقيم على أعواد عالية ، وشده إلى الأرض أوباد كبيرة ، عمس إليها حمال صحمة من أوبار الإبل وأصواف النعم . فلما سمع حليمة وقع أقدام أبها سكنت ، ثم وقف تنتظر دحوه . وقد ارتسم على وجهها ما كان في قلبها من الخوف . ثم اقترب إليه فقبل يده في حشوع .

فقال مره : « م حنا بك يا حليمة . حيرا ما حنا ، نه هذه اللبله ! »
« ثم التفت فرأى حساسا إلى جانب في : يكن من الحمة وأمه ينظر إليه كأنها كات يتحدث في عصب .

فقلت حليمة وهي تحاول أن تهدي من روعها : « لس في إلا ما تحب بأنى » .

فقال مره : « لقد سمعتك تنكلمين مع أمك » .
وما كاد يم فوله حتى انفجرت المرأة تنكي ، ووصف يديها على عينيها تحاول كتمان صوب السكاء .

فوضع مره يده على رأسها ملاطفا ثم قال : « مادا يحركك يا نيتي ؟ »

فاسنمرت فی نکاتہا ملنا ، ثم طالب من شہقامہا : « أدرك حساساً ما والدي » .

فقال لها وقد نظر نحو اسه : « لا نحاق ما انتی . لیس عند حساس إلا کلّ حرّ ! » .

قال ذلك اهدى من روع اسه . ولكنه كان نکدّ فوله سراب صوبه المردده وبطراته الغاصّة إلى ولده .

فقال حليله : « أما سمعت ما أئی عما كان منه وین وائل ؟ » فسک الشبح ولم ترد أن یرید من ارباعها ، فقال : « لم یکن بينهما تنی ، نحشی » .

طالب جليله : « إذا لم یعلم ما أسر . إذا لم یحبرک حساس » . فقال حساس بعد أن بقی صامساً کلّ تلك المده : « لم أحبره ما حليله . وماذا أقول له وقد وحده مع شیوخ بی شسان ؟ أقول له إن کلساً أدلی ، أقول له إن کلساً کلّی کما نکلم السبدّ الصدّ ؟ » .

فقال مره وهو یحاول کتمان عصه : « لا نحاق ما انتی . ان یكون بينهما إلا ما تحیی » .

ثم التفت إلى حساس وقال : « إذا لقد کان بینکما نزاع » . قال حساس وشفتاه یختلجان : « قال لی قولاً مرددته علیه . هدّنی مهدّته » .

قال مُرّة مرتاعاً : « هددته ؟ » .

فقال حساس وقد أعلى صوته على صوب أبيه : « سم هددته .
ألست حساساً بن مرة ؟ ألست من شينان سادة بنى نكر ؟ فماذا
مفضلّى كليب ؟ » .

قال مُرّة وقد أودع كل ألمه فى كلمته : « حساس ! » .
ونظر إليه غاصباً . فأغصى الفتى أمام نظره أبيه ، وبقي صامتاً
ففالت جلييلة تخاطب أخاها :

« أى حساس ! أب أخى وهو روى . فبحق عليك لا تقطع
رحمك ، ولا تُؤدِّنى فى صاحبي » .
فماد مُرّة إلى ملاطفها قائلاً : لا تخافى يا حلييلة . إن حساساً
لن يميمىَ أمرى » .

ثم نظر إلى اسه وقال : « ولماذا هددك يا حساس ؟ » .
قال حساس : « قد علمت أنه قد حمى حير مراعى حبالنا .
وأمر ألا ترعاها لإبل أحد سواء » .

قال مُرّة : « علمت ذلك قملك ، وقد أقررنا ذلك ورضنا عنه
ولكن لملنا ترعى مع إبله فلا يتعرض لها » .

قال حساس : « ولكنه يريد أن يفصحى مع جارى » .
قال مُرّة : « ومن جارك هذا ؟ » .

قال حساس : « سمع بن شمس الحرى ، رجل نزل ضيفاً على

حالتى التَّسْوُس ، وله ناقة رعى مع إبلى ، فطردها كليب وقال :
لو عادب إلى هنا لوصف سهمى فى صرعها » .

فسك مره ، وبقى ناطراً إلى ولده ينتظر أن يتم الحديث ،
فقال حساس : « فقلت له لو وصفت سهمك فى صرعها ، لكان
لى معك شأن » .

فقال مُصره وهو يكتم ما ناز فى نفسه من النصب : « سناحد
إبل حارك ورعاه فى مرعى آخر » .

قال حساس معانداً : « ولكنى لا أفرط فى أمر حارى » .

قال مُره يحاول تهدئة ولده : « وأنا كذلك لا أفرط فى حارك
ما ولدى ، سرعاه فى مرعى آخر » .

فقال حساس غاضباً : « لا بل رعى إله مع إبلى ، والويل
لمن تعرض لها » .

ثم خرج من البيت عاصباً ، فذهب ولم يرجع إلى بيته ، ولم
يسرف أحد أين قصى ليلته .

وجعل مره يخفف من خوف انتته ، ويهدى من روعها ،
وحلس يحادثها ويصاحكها ، وهو ثقيل القلب ، يتوجس حيفة مما
قد يجره عليه بَرَق ولده ، حتى إذا ما اطمأنت جليلة إلى وعود أبيها
قامت لتمود إلى بيتها ، وخرج أبوها معها ليؤسها فى ظلمة الليل ،
حتى إذا بلغ قبة كليب العالية ، تركها عند المدخل وعاد إلى بيته .
وكان الهم يملأ قلبه ، من توقع ما يكون بين انه وبين زوج انتته .

مص أمام كان مازل نكر ويعلي في أناسها لا ظلل إلا
 وحوها حامة عاسة، وكاب الوادي حالة لا سادل فيها السبوح
 الهمسات ولا توقد في وسط راحها البران؛ قد شغل الجميع ما حسن
 من موقع الفرقة من أبناء العم الدس عاشوا معاً في روع بهامة
 والمامة سس مصله سقاسمون العس سوعه في سراء وضراء،
 ويمعاورون المروح في رعمهم وصدمهم؛ تجمعهم حمماً دكريات
 الجهاد المشترك مع عدوهم من ملوك اليمن وهائله. فإن الصيحة الى
 صاحبها حساس لم تكن إلا صدى لما في قلوب فائل نكر جمعا وفي
 قلوب سبابها خاصه.

كان السبوح نحسون ويألمون. ولكهم كانوا بطوون
 ما نحسوه من الألم بح الصمب العمق محافه سطوه الملك الناسل
 الحمار وائل بن رسعه. كانوا نحسون أن كلسا قد أطفاه الملك
 وأطره ما لبقاده فومه من التنجبل والنكريم. ولكهم كانوا كلما
 نار بعوسهم من طفناه بدكروا سابق الذلة الى كانوا شون
 بح أعناها عند ما كاب فائل اليمن تتحكم في أرضهم فيؤثرون
 الذلة لابن العم ويصبرون على كبرياء كليب وعسفه وطفياه
 فابها لا تجرّ عنهم من الفصص مثل ما كانت تجرّ عنهم وطأه حكم

الغريب . ولكن حساساً صاح صيحه وبلغها من ورائه الشبان في فائل نكر ممن لم يعانوا عصاة حكم قاتل اليمن ولم يشهدوا عَسَفَ أفعالهم وحوَرَ ملوكهم . فإنهم لم يروا كيف كانت شيوخهم تقتل وتسجن ، ولا كيف كانت أموالهم تسلب ، ولا كيف كانت حُرُماتهم تسباح . لم يشهدوا شيئاً من ذلك ، وكان كل ما شهدوه إنما هو كبرياء كليب واستشاره دونهم بالسوق والسلطان وحماه الوحش من صيدهم في فيافي بهامة والمامة . كانوا كلما همّوا إلى طاعة نفوسهم في لذه الصيد وحدوا دونهم الحمي موصداً إلا لمن كان كليب يؤرّم من أعوانه . أو لمن كان يحصم بالعرب منه والخطوة عنده من أهله .

سمع هؤلاء الشبان صيحة حساس فاهروا لها ورددوها فيما بينهم ، لا يبالون أن يصرموا في فائل ربعة ناراً لا تطفئها إلا الدماء السائلة بين بني الأب والأم من نكر وعلب . فكان التسيوح كلما سمعوا صيحهم أسمعوا وحيروا مما يحمله العد من كوارث تفجهم في الولد والحلم ، وفي النفس والمال . لقد طالبوا عركوا الحروب وحاصوا عمارها ، وما كانوا ليجئوا إليها إذا استنطاعوا إلى تحبها سبيلاً . لقد عمهم السلام ودرّبت لهم الأخلاف وأمرع لهم المروج ، واستعرب السيوف في أعمادها ؛ إدهابهم فائل العرب جميعاً وتحامت عداوتهم وتركهم يستمنعون ثمار النصر الباهر

الذى كان رمره وصاحب عَلمه كليب — وائل بن ربيعة — .
كان الشيوخ يُستفقون أن يسعدلوا بذلك السلام وهذا
الرحاء حرباً تستنزف دماءهم وتحترق عمارتهم وتصيب ما حازوه
من أموال ؛ ولهذا قصوا تلك الأيام التى أعقبت صبيحة حساس
واحيم ، كل منهم مطوّر على نفسه يفكر فيما هو صانع بنفسه وفيما
هو محتال فيه مع نبيه وحفدته من أولئك الشبان الأعرار الذين
لا يكتفون ما فى نفوسهم ولا يبطرون فى أعقاب الأمور .

ولكن الأمور لم تقف ؛ إذا كان شيوخ ربيعة لا يرالون
يرددون . فإن قلب حساس كان يغلى من غيظه وحفده فلم يدع له
اطمئناناً فى صباح ولا مساء ؛ بل كان يدفعه ويثور به فلا يرال
يصر فى الجوع ليُلمّ بكل فتاك من الشبان يحرقهم وينقل إليهم
ما لم يبلغهم من أساء عسف كليب . فصار لا يأوى الى منازل
أهله إلا الساعات القلائى فى طویل الأيام ، فإذا آوى إليها لم يرتح الى
حديث أحد ولم يرتح أحد الى حديثه إدا استبدت بخياله صوره
واحدة ، صوره كليب . وهو يرفع رأسه عليه شموخاً وينظر
إليه باسمّاً ، لا يحفى عنه ازدرائه ويأمره ألا يمدو نفاقة جاره الى
الحى ، كأنه السيد يأمر بعض عبيده ويستير إليهم بإصبعه فلا
سمهم إلا أن ينحوا وأن يطيعوا .

فى تلك الأيام الحامئة الساكنة كان شابان أثنان لا يعبآن

شيء مما يفكر فيه الشيوخ ، ولا يباليان شيئاً مما يصل إلى أسماعهما من ثوره حساس . كانا صديقين شاملاً وتقاسما حياة النعيم في أكرم بيتي ربيعة . نشأ في سلام لم يعرفا مآزق الحروب ، وفي بحوثة من العيس لم تلجئهما ضرورة إلى كسح النفس عن لذات الحياة . وكانا جليلين ناعمين تركهما الأهل للهو ، فلم تكن بهم حاجة إلى حيدّهما ، واكتفى الشيوخ بأن يتحدثوا فيهما وأن يتكهما ما بصرافتهما إلى اللذات ، وعنفوا عليهما في الأحاديث . ولكنهما لم يباليا من ذلك شيئاً ؛ فما كان يصرفهما أن يسمعا رأي الشيوخ فيهما إذ كان ذلك أئسّ لهما على المرح والاستهتار بالمحون .

كان أحدهما عدى — المهلهل بن ربيعة — الذي كان أحوه وائل يسميه رير النساء تهكماً وسخرية ، وكان الآخر همام بن صرة أخو حساس .

ترك الصديقان الشبان منازل الحى الساكنة الحاممة واعتزلا في روضة من الرياض عند رأس وادٍ صخرى ضيق تنحدر جوانبه في درجاب وعرة تحرى من فوقها جداول من مياه الطر المحتمة عند رأسه ، وكانت المياه في هبوطها على الحواب الصخرية همس في حرير رفيق يشبه وسوسة أوراق الأغصان إذا هرها السيم . وكانت السفوح مخضرة تكسوها حصل متفرقة من أعشاب بارضة وشجيرات قصيرة أحيائها الموسم الطير .

وأعدّ الصديقان ليومهما أعدّه من حر وفاكهة وطعام ورياحين من رهور العرار العطره البيضاء داب الحديقة الصفراء ، وبتنا إلى فنياب من حليعاب القنائل ليؤسهما في المنادمة على الشراب ، كما اعتادا ذلك في محالهما ؛ إذ كانا لا يرهبان أن يحدث عهما الناس . فما كان ذلك عهما بالحدث الجديد .

ونقيا في محلسهما إلى أن تصرم النهار وهب النسيم باردا يؤذن باستطالة الطلال ، واضطرب عصيون الأشجار ، وغايل سعب المحلات حول العين . ومال الحر بهما فاصطجعا . ومال النسوة حولهما بهما من صحكاك وسشى من أثر الشراب . ولكن رفاق الخمر كانت في وسط جمعهم بمصها ملي ومعضها مفسوس ، ولا يرالون علاوون منها الكؤوس كأسا بعد كأس . وهم كلما شربوا منها زاد بهم الطمأ وطلبوا المزيد . وفيما هم في ذلك لاح لهم هدم من أسفل الوادى فطرب إحدى النساء إليه وقال بلسان منلغم : « هذا صعب كزيه . ما رأسه مره إلا كرهب العاء » . ثم هم من مكاهها وهي تمايل فحدثها أخرى صاحكة في حلاعة وهي تقول :

« لسقيته معا حتى يلين . فإنا لا نعرف الانهرام » .

وعلى الصحكاك من الجميع حتى سمها القادم وهو مغموق حاب الوادى الصخرى متكئا على رعبه ، فرمع نحوهم رأسه فرآه

الحالسون وصاح همّام في تني . من العرع .

— حساس !

فصحك مهلهل وقال : إنك ليرهه رهة لا تحمل مثلها لمرء .

فصحك النساء . وقال إحداهن :

-- وحق مناه لو جاء مرد إلى هنا لأُلّسن لحتته من هذا الرقي

حتى يعود صفراء !

فصاح همّام وهو يصحك :

حسبك أيها الحرقاء فلسا عن الرقي في عني .

فعلا تحك الجميع ؛ وكان حساس قد بلغ موضعهم وجباهم و

هدوء ، فدعاه المهلهل إلى الخلوس وهو يصحك ، ولكنه لم يحد

إلى المرح . وحلس صامتاً معس الوجه ، مضطرب الأنفاس

ومد ربحه أمامه وحمل بعقب فيه بأصابعه وكفه . وهرع به

الصخر حساً أو يرسم به على الأرض خطوطاً . فقال له همام صاحكا

— هل لك في كأس ما حساس ؟

فأطرو حساس وراذب عنبه عمقاً وقال في صوت خاف

-- قد حرمها على نفسي . وأب أولى بها .

فقال المهلهل يمارحه :

— لعل لك ثاراً فأليب لا شرب حتى يدركه .

فقال حساس في مراره :

— بل يببى للمد ألا يَطرِب .

فلم يَرَمَحْ أخوه همام إلى جوابه وقال :

— وَمَن المد ويحك ؟ إناك حساس ابن مره .

فقال حساس مسرعاً وقد نظر إلى أخيه حاقاً : « وهل بسنى
لأن مره إلا أن يكون عدداً ؟ » .

ولم يَرَمَحْ النساء إلى هذا الحديث ، فقد كان منظر حساس
لا يدع لمن جراه عليه فقم من واحدة بعد أخرى وتسللن وتركن
المجلس الكرىه .

وما سمع همام إجابة أخيه حتى انتفص كأن البار قد لدعه ،
وهم أن يرد على أخيه رداً قاسياً لولا أنه رأى عدداً يقبل وهو
يحمل على كتفه شيئاً ضخماً . فنظر إلى أخيه بطره قاسية ، ثم
صرف عنه وجهه إلى المد القادم ، فإذا هو من حدم كليب
بجمل على كتفه وعيلاً من الصيد .

فقام الملهل نحوه مسرعاً متعثراً يكاد ينكفئ ، ومد ذراعيه نحو
المد وساعده على إزال الوَعيل . وصاح وهو ممتلى بالسُرور :
« هدية نطل حسب . ربح كليب وحق أوال ! » .

فما كاد حساس يسمع صيحة الملهل حتى وثب قائماً ، وركز
رجمه في الأرض ووجهه ينم عن الفيظ والحقد . وقال يتمتم من
بين أسنانه موجهاً الحديث إلى أخيه :

— تتمتع بفضلات الكرام !
ثم انصرف وهو يطعمُ الأرض بسن رجه حتى عاب
وراء الكثبان .

ووقف همام أحوه يطر في أعقابه حتى عاب عه وهو يردد
عيطه حتى لا يفسد على نفسه منعة اليوم . ثم ذهب نحو صديقه
لشاركه فيما هو فيه ، فسمعه يسأل المد :

— ومى عاد وائل من صيده ؟

فقال المد في خضوع : حصر الساعة ومعه الصيد فسأل
عنك حتى علم بأنك خرجت مند الصباح . فأعطاني هذا وأمرني
أن أتمسك حيث تكون لتدوق من صيده .

فصاح المهلهل في حماسة :

« أئتمّ مساء يا كليب ! إنك لتذكر على المد دثر النساء » .
ثم صحك وشاركه همام في ضحكه قائلا :

— كليب للصيد والحرب ، وأما المهلهل

ولم يتم همام قوله لأن المهلهل صاح ضاحكا يتم له كلمته .

— والمهلهل للمجون والشراب .

ثم علا صحكهما وأقبلا على الوَعيل يساعدان العبد في سلخه
وإعداده للطعام .

لم يجد وائل في هذا الجو الحار اسراحة إلى الإقامة في منازل ،
ولم يكن في بوره نفسه يراح إلى البرهه في روصته ، وعاف الطعام
فكان لا يصب منه إلا إذا ألح عليه حليله ، ثم لا يزال منه
إلا سيراً . وعاف الشراب ، ومحالسه الشدمان ، وحبل إليه أن
الجو الذي حوله كله تأتمر به ومحادعه . فكان لا يجد راحة إلا في
الفلوات . نصر في كندها ، ونفرق شجونه في السير الطويل
والركوب العنيف ، حتى نغى لو ثار الحرب لكي يجد في صجة
معامعها ما يبعد عنه تلك الوسوس التي ساورتها . وكان الصمد
أحس ما يخرج إليه ؛ فكان مطارد الوخنس لا بدع فراعاً
لهواجس عصه المكتوم ، تلك الهواجس التي كانت تردحم في
صدره حتى يصيق بها كلما خلا إلى نفسه . فكان يخرج في تلك
المدة التي شمل فيها السكون مدارل قومه وبنوادمهم فيقضي في الصيد
يوماً أو أياماً ، ثم يرجع حياً قصيراً فلا يلبث إلا قليلاً ، ثم يعود
إلى الفلوات يلتمس فيها التفرج عن قلبه المكروب .

قام يوماً من تلك الأيام من بومه في الصباح الباكر ، فلبس
ثيابه وأخذ قوسه وكنانة سهامه وهم بالخروج ، وكانت امرأته
جليلة بت مرة تنظر إليه وعيناها مغروقتان بالدمع ، تنسح حر كته

في سكون ووحل ، والحرن يعصر قلبها . لم بدر مي يعود السلام
إلى هذا الزوج الحب الذي قد تدل منذ حين فصار لا يطمئن
ولا يستقر . وكاب آلامها ردد حتى لا تقوى على احتمالها كلها
تذكر أن سب كل هذا الذي أصاب زوجها من الاضطراب ،
إنما هو أحوها الذي أثار عليه النفوس وبجرأ عليه في عنقه وأمام
عيبه . ولم تسطع هي ولا أحد من أهلها أن يسألوا من قلبه الحقد
الذي ملأه وملك عليه رمامه . فقد حدثته وبوسل إليه وسمعت
أمها يحادله ويحاول أن تثنيه عن عداوته . وسمعت أنها وهو يعنفه
ويغلط عليه القول ، ولكن ذلك ذهب مع الريح وتبقى حساس
نفدى وساوسه وعداوته بكل ما استطاع أن يلتمسه من علل ؛
فكان يرى في كل نظرة من نظرات وائل احتقاراً ، وفي كل كلمة
من كلمات إهانة ، وفي كل فعل من أفعاله آفة جديدة على كبرائه
وطغيانه ؛ ولج به الحبال حتى حلب هذه الوسوس محل العقيدة
لا تدعزع عنها ولا تقبل المحادثة فيها .

فكان هذا أتمث على ريادة تألمها واشداد حيرتها . فلما رأب
زوجها خارجاً ولم يستقر في منزلها إلا بعض ليلة برح بها الحرن
ووقفت في سبيله تنظر إليه صامته والسمع يحول في عينيها .

تنظر إليها وائل واهتر فؤاده إشفاقاً وقال لها وهو يحاول

الابتسام :

— مالى أراك مكتئبة يا جليلة ؟

وكان هذه الكلمة قد حلت بحلقه حزنها فامعجرت تبكي ،
وألقف يديها على كتفيه وطوق بهما عنقه ، وأمالت رأسها إلى
صدره وهي تنشج بالبكاء .

فوضع وائل يده على رأسها ثم صمها بمطع إليه وقال لها :
« إننى لا أطيق بكاءك يا جليلة فما الذى يحزنك ؟ » .

فقلت له فى بكائها : « لو كنت تتألم لحزى لما عبت عى كل
تلك الأيام . إنك لم تأب من صيدك إلا الليلة وأراك تبكر
بالخروج » .

فقال لها وهو يحاول الانسجام لهدئتها : « أتحبين أن تكوى
معى يا جليلة ؟ لقد وددت لو ركبت الخيل ورميت بالقوس فإنك
خير من أحب صحبته » .

فقلت جليلة وفى صوتها رنين اللوم : « بل يريد أن تعتمد عن
منزلك وتعتمد أن تغيب عنى » .

وكانها أدركت ما فى قولها من قسوة فقلت :

« بحق مناه يا وائل ابقى معى بحق أوال لا تخرج اليوم عى » .

فقال وائل يلومها : « كأنك تخشين عى إذا جرجت ؟ » .

فأسرعت قائلة وقد رفعت رأسها ونظرت فى عينيها : « بل

أخشاك . إننى لأخشى عليك فليس فى قبائل ربيعة من يتجرأ عليك » .

فزَمَّ وائل شفّتيه وصمت لحظة ، ثم قال كأنه يحدث نفسه :
« لبس في ربيعة من يتجرأ على ؟ » . ثم تدارك كلمته فضحك
وقال في لهجة استخفاف :

— لا تخشى يا جليلة . أعدك أنى لا أتعرض لجساس .
أهذا ما تعنين ؟

فنظرت جليلة إلى وجهه ورفعت كعبيها إلى عارضيه فضمتها
بينهما وقالت بصوت متهدج من أثر الشجون :

— ولكنى لا آمن أن تبدر منه بادرة فلا تمحى نفسك .
فقال وقد مد يده إلى رأسها يمسح بكفه على شعرها :
— لو بدرت منه بادرة لنحملتها من أجلك . أبهذا ترضين ؟
ثم ضمها إلى صدره ضمة أودعها ما في قلبه من المحبة لها .
فقال جليلة في عناد :

— وماذا عليك لو أقت اليوم ؟ إياك لم تذق راحة منذ أيام
وأولى لك لو بقيت اليوم في منزلك .
فقال وائل متردداً :

« وما الذى يملك على هذا القول يا جليلة ؟ لقد طالبا
خرجت وأقت الأيام في صيدى ولم أر منك مثل هذا الحزن الذى
أراه » . وسكت حيناً ثم قال ضاحكاً :

— لقد قلت لي هذه الليلة أنك كنت عند عرافة تغلب .

وهذه تميمتها قد وضعتها بيدكِ حول عنق . ولم أرد أن أعصيك
حتى أزيل عنك خوفك . فهل جئى التى أمرتك بأن تُقعدينى ؟
فخولت عينها عنه ولم تجبه ؛ فضمها إليه باسما وقال لها :
— إذن فهى التى حذرتكِ من خروجى ، وأنت تريدننى على
الاحتجاب حتى تأذن لى عرافتك .
فتبسمت جليلة ابسامة ضئيلة وأخفت وجهها فى صدره
وقالت متممة .

— وماذا عليك لو أطعنى ؟
فقال لها : آتجيبن أن يتحدث الناس أننى خشيت أن أخرج ؟
لقد تحدثت الأبدية بما قال جساس . أتريدن أن تتحدث
المجامع بأنى أحتجب خه فا حتى تأذن لى عرافة تطلب ؟
فقال جليلة فى عناد وهى تنظر إليه :
— ألا تطيع رجائى ؟ ألا تجيب توسلى ؟ وماذا عليك أن
تصرف عنا سخط مناة الذى بلغت أمره ؟ بحق جئى لك أطمئنى
إذا لم تجد من حبك لى ما يحملك على البقاء ، أبقى اليوم إلى جانبى .
لا يستطيع أحد أن يقول أنك خشيت الخروج . أنت فارس
العرب وسيد ربيعة كلها ، ولن يستطيع أحد أن يقول أنك تخشى .
فخول وائل عينيه عنها مرة أخرى حتى لا يرى دمعها وقال :
« إن جئى لك يا جليلة لا يمدله عندى فى الحياة حب . ولكنك

لا يحين أن يتحدث الناس عن حديث السخرية أو يظنوا بي الخوف ، مُرِبِنِي أَنْ أَخْرَجَ حَتَّى أَكُونَ قَدْ أَطْعَمْتُكَ . مُرِبِنِي أَنْ أَخْرَجَ إِلَى صِيدِي وَأَنْ أَخْرُسَ لِسَانَ عَدُوِي ، وَأَعِدْكَ أُنْبَى لَنْ أَتَمْرَضَ لَجَسَاسٍ وَلَنْ أَمْسُسَهُ بِسُوءٍ وَلَوْ تَمْرَضَ لِي » .

ثم تخلص برفق من بين ذراعيها ، وأتجه نحو باب الخيمة خارجا . ولم تجد جليلة بداً من أن تمسك عن الحديث ، ووقفت تنظر إليه في صمت وقلبها يخفق ، وعيناها لا تزالان تدمعان .

ولما خرج وائل إلى فناء منزله لاح له ربوع يجرى من جانب الوادي ، فأسرع إلى قوسه فوضع فيها سهماً فرمى اليربوع قبل أن يبلغ الجانب الآخر من الوادي فصرعه في مكانه ، وقد أصاب السهم رأسه . وأراد عند ذلك أن يجمل وداعه مرحاً فنظر إلى زوجته وضحك ضحكة عالية وقال لها : « هذا عشاء عساف يا جليلة » .

فلم تملك جليلة إلا أن تبسمت وصاحت به .

— حرسك مناة !

ووقفت تنظر إليه وهو سائر وتتأمل قامته المعتدلة ، ورأسه المرفوع وخطاه الواسعة . وكان كلبه عساف يسير كما اعتاد في آثاره يتشم مواطئ أقدامه .

ولما بَسَمَدَ وَأَوغَلَ بَيْنَ الْكَتَبَانِ أَسْرَعَتْ جَلِيلَةُ خَارِجَةً إِلَى

طرف الوادى ، وسارت تهرول حتى دخلت فى شِيب من شِيباه
وقصدت إلى بيت العرافة لتلتبس لوائل عندها بركة إلهيها مناة
وأوال .

سار وائل حتى بلغ مرعى خيله ، وكانت فى واد مجاور ،
والعبيد مشتتون فى أنحائه بعضهم يتعهدون الأمهار ، وبعضهم يعلم
ما شب منها ويروضها ، فنادى كليب أحدهم وأمره أن يأتى له
بالرباب ، وكانت أحب خيله إليه . فأسرع العبد إليها حتى قادها
إليه ، فأقبلت الفرس تسير إلى سيدها كأنها صديق تسعى إلى صديقه ،
حتى إذا قرُبَت منه جعلت تحرك رأسها وهى تصل كأنها تُبْدى
سرورها بلقائه ، ورفعت ذيلها تهره ، وضربت الأرض بحوافرها
كأنها تطرَب إلى ركوبه وترغب فى الركض تحته . فسح كليب
رأس الفرس وعنقها وهو ينسم لها ، ثم وثب على ظهرها وركبها
عُرْيَا ، وقد أخذ كنانة سهامه فى كتفه اليسرى ، وجعل القوس
فى يمينه . ولما استقر فى ركوبه مسح رقبة الفرس ، وقال كأنه
يخاطبها : « هيا يا رباب » .

وكان الفرس قد فهمت خطابه فانطلقت تعدو مثل وعل برى ،
وغابت براكبها وراء ثنية الوادى ، وانطلق الكلب يجرى فى
أثرها يقفز فوق الحجارة لا يلوى على شيء .

قضى وائل ذلك اليوم فى الصيد حتى مالت الشمس نحو الغرب

ثم عاد وقد حمل زوجين من وُعول عصماء تكاد الرباب تنوء تحت ثقلها ، وقد تدلى زوج منها عن يمين وآخر عن سار . فلما بلغ مصرعى خيوله فى الوادى المجاور لمنازله أسرع نحوه العبيد فوثب عن فرسه وقال ينادى النصين عند ما وقعت عينه عليه .

— أين المهلهل اليوم ؟

فتردد العبد حيناً ثم قال :

— لا أظنه اليوم فى منازلته .

فأدار وائل وجهه وابتم عند ما سمع جواب العبد . إذ علم أن المهلهل أخاه لا بد قد خرج إلى بعض لموه كما اعتاد فقال للعبد :

— احمل إليه وِعِلاً من هذه أينما كان يا غصين .

ثم سار نحو الروضة وقال وهو لا يلتفت :

— قسموا سائر الصيد بينكم وامسحوا الرباب ثم قربوها

منى عند الروضة .

ومضى نحو روضته والعبيد يسارعون إلى الفرس ليزيلوا ما علق بها من أثر الدماء .

ومضى نحو روضته ليقضى بها حيناً كمادته والكلب عساف يسير فى آثاره حتى بلغ مدخلها فسار بين شجرها الملتف وأقمى الكلب عند طرف منها ينظر فيما حوله وهو يلهث .

وقضى وائل هناك ساعة يسير بين الحماثل ويتأمل زهرها

وأغصانها حتى بلغ إلى خيمة القنبرة ، فوقف عندها هنيهة ، ولما وقعت عينه على العنق المحطم المهجور سرت فيه هزة من الغضب ، ولكنه صرف عينه عنه سريماً ومضى إلى خيمة أخرى حتى لا تُلح عليه الذكرى الأليمة .

ولم يلبث أن عاد إليه الهدوء بعد أن سار حيناً فوق الرمال الناعمة التي جعد سطحها مرأً الرياح فبدأ تحت عيبيه مثل الغدير قد انداحت عليه خطوط متراقصة من لس السيم . واطمأن إلى أن حماه لا يزال عزيزاً لم تسبحه اليوم قدم جريئة . ثم أتى إليه أحد العبيد والرباب تسير في أثره غير أن يمسك لجامها تصهل وتشول بذبها . فأقبل نحوها وائل ومر بكفه على رأسها وعنقها وهي تشمه وتهانف له ، ثم وثب عليها وسار نحو منزله .

ولما بلغ آخر وادى الروضة رأى عن بعد شخصاً يسير مسرعاً وهو يخبط الأرض برج رمح متأمله ، فإذا به جساس . وكان متجهاً نحو مراعى إبله في الوادى المجاور . فاعترتة لمرآه قبضة لم يتمالك منها نفسه ، ولكنه أخذ يصرف نفسه عنها ، فاستعاد صورة جليلة لعلها تسأل من صدره تلك الموجدة التي كان يجاهد نفسه في مغالبتها . وفيما هو في ذلك سمع كلبه يباح نباحاً شديداً ، فالتفت نحوه فإذا به يعدو مسرعاً نحو جساس في غضب كأنه يريد أن يهجم عليه فيقتله . فهمر فرسه لكي يدرك الكلب الفاضب

وصاح به ليثنيّه ، ولكن الكلب اندفع في شراسة حتى وثب على
جساس ، فما أدركه وائل حتى كان قد مزق طرف ثوبه وعاد إليه
يريد معاودة الكرة عليه . فوقف جساس والرمح في يده يريد أن
يقذفه على الكلب ، ولكنه عدل عن ذلك فجأة ، واتجه نحو
وائل فنظر إليه وشخص إليه يبصره حيناً لا يطرف ولا يتحرك .
وخشع الكلب عند ما أبصر سيده قريباً منه وسمع زجره . وكاد
وائل ينطق بكلمة يزيل بها غضب صهره الحاقق ، ولكنه أوقف
الكلمة على لسانه إذ سمع جساساً يقول له بصوت أجش :
« هلم إذا شئت فأنت أولى بهذا ! » . ومد رمح كانه
يريد نزّالاً .

فغلا الدم حتى ملأ رأسه ووضع يده على مقبض سيفه
وهمّ أن يسرع نحوه فيُغمدَ السيف في صدره ؛ فإبه لم يزدد عليه
إلا جرأة ، ولم يزدد غليله وحقده إلا اشتعالاً . وهذه هي كلمته تنطق
بما كان في قلبه من تحدٍّ بذىء .

ولكنه تردد بعد قليل ورفع يده ونظر إليه نظرة طويلة وهو
صامت ، ثم أدار عنه وجهه وقال في مهارة :
— لقد وعدت جليلاً .

ثم همز فرسه وأسرع عائداً إلى منزله وهو لا يكاد يرى
ما أمامه من شدة غضبه المكظوم . ووقف جساس لحظة ينظر في

آثاره وهو مضطرب القلب يكاد يتمزق من النياط ، وقد طعنته الكلمة التي سمعها في صميم قواده وزادت حقه الهبابا .

ولما بلغ وائل ساحة منازل هب من فيها سراعا يتلقونه فوثب عن فرسه وسار نحو خيمته ، ولما سمعت جليلة ضجة مقدمه قامت مسرعة في لفة تريد أن تبلغ باب الخيمة قبل أن يدخل ؛ فقد كانت تريد أن تترث به قليلا قبل الدخول حتى يطاء خطوطا رسمتها بدقيق عند بابها . فلقد ذهبت في الصباح بعد أن خرج زوجها إلى عرافة تغلب واستعانت بها أن تدبر لها من سحرها وكهاتها ما يمنع الشياطين عن ولوج بيتها ، ويحفظ لها الزوج الحبيب من وثباتها . فصنعت لها العرافة دقيقا تخط به رسما عند مدخل البيت لكي يطاء وائل إذا عاد داخلا وتذّر منه في أركان البيت وتحت أوتاده وعند ساداته ، فإذا أصاب الزوج بخفه شيئا من ذلك الدقيق في دخوله أو انصرافه أمن المهلاك ، وكان محروسا في خطاه .

ولكن وائلا أقبل مسرعا ، فلم تدركه حتى دخل الخيمة ، فشردت يبصرها نحو الخطوط المرسومة عند الباب لترى هل مسّها بخفه ، ولم تظن وهي في انشغالها بذلك إلى ما كان على وجهه من علامات الغضب . ثم تنبّهت إلى أنه دخل ولم يبسم لها ولم يأخذها بين ذراعيه كما عودها . فنظرت نحوه في دهشة فرأت

وجهه مرعباً وهو يتمدد ألا ينظر إليها . فقالت له في صوت العتاب :

— عمت مساء يا بن العم .

فلانت نظرتة قليلاً ، ثم قال وعليه هيئة الاعتذار :

— عمت مساء أيتها الحبيبة !

ثم عاد إليها ففتح لها ذراعيه يحاول أن يخفي عنها اضطرابه

وغضبه ، فألقت نفسها بين ذراعيه وقالت مترددة .

— لملك قضبت يوماً هنيئاً في رياض الخُزّامى .

فقال وهو يلفها بيمنائه ويشم شعرها بشغف ؟

— وأين الخُزّامى من عطرك ؟

ثم أرسلها وحاول أن يصرف نظره عنها . فغسست في صدره

وطوقته بذراعيها وقالت بصوت خافت فيه رنة الحزن :

— أحسن كأكبك غاضب .

فقال يحاول صرفها عن حديث جساس :

— كيف مضيت أنت اليوم يا جلييلة ؟ هل عاودك الدوار ؟

وكانت جلييلة حاملاً يمتريها دوار الوَحَم بين حين وحين فيصيبها

بضيق شديد .

فقالت جلييلة :

— ما أبالي اليوم دواراً ، قل لى هل من شيء أغضبك ؟

ثم تشبّثت به في إصرار واستمرت تقول :

— قل لى بحق عندك . هل تعرض لك جساس ؟
فلم يستطع كليب أن يكذب فى جوابه بعد أن ألقت إليه ذلك
السؤال الصريح .

فقال : « ولكنى وعدتك يا جلييلة » .

ثم سار داخلا حتى بلغ صدر البيت فجلس على فروة قد فرشت
فيه ، وذهبت جلييلة إلى ناحية أخرى من الخيمة فحملت إناء مملوءاً
باللبن وأتت به فقدمته إليه وهى صامئة ، ثم جلست إلى جابه تنظر
إليه فى شىء من الوجوم ، فشرب كليب بعض اللبن ووصع الإناء
إلى جابه وقرَّب جلييلة إليه وجعل يحدثها بما كان من أخيها وهى
تسمع مطرقة وقد برَّح بها الألم .

ولما انتهى من وصف ما حدث من جساس نظر إليها بإتسامة
مرة وقال : « ولكنى مع ذلك أرجو أن يعود إلى صوابه » .
فقالت جلييلة : « أب سيد ربيعة كلها ولا يضرك نَزَق شاب
مثله » .

فقال كليب : « أَرْضَيْنِ لى أن أهان ؟ » .

فقالت بصوت نابت : « حاشاك أن تلحق بك إهانة . ومن
يظن أن حلمك عن جساس مبعثه الضعف عنه ؟ »
قال كليب : « لقد عرفتُ العرب يا جلييلة ، لا يُكبرون
إلا الميز ، ولا يُجِيلون إلا المنيع » .

فرأت جليلة صدق قوله ، وعلمت أن فعل أخيها يُبَصِّرُي عليه الناس ويُنزل من هيئته ، ولكنها آثرت أن تقلل من حظورة الأمر حتى لا تريد عضبه ، وعزمت على أن تسمى مرة أخرى عند أخيها وأبيها ، لكي توقف جساساً عند ذلك الحد ، حتى لا تنقطع الرحم بينه وبين زوجها ، ولا تقع الفرقة بين قوما . ثم أخذت تلاطف كليباً وتسليه ، واستطاعت بعد قليل ما تستطيعه الزوجة المحبة وحدها ، فإذا الحديث يعود إلى عذوته ، وإذا بالبطل الفتاك يرتد حيباً رقيقاً ، يتحدث إلى زوجه الحسبة واصفاً لها ما فعله في يومه من مطاردة الوحش ، وصيد الوعول من قُلَلِ الصخور ويطون الوديان ، وسهب في مدح فرسه الرباب وكلبه الأمين عسَّاف ، وسداد قوسه وفوذ سهمه .

فقالت جليلة باسمه : « وأين ذهب الصيد ؟ » .

فقال : « أهديت مهلهلا أخى وعِلا ليكون طعاما له في شرايه ، وأغلب ظنى أنه اليوم لاه مع أخيك همام ، وتركت سائر الصيد للعبيد » .

فقالت وقد التفتت إليه في دلال : « وأين إذا نصيبى » .

فضحك وضمها إليه وقال : « نصيبك وائل نفسه يا أيتها الحبيبة » .

فانحنى برأسها على صدره وجعل يعبث بشعرها الأسود ، ثم

همس في أذنها يقول : « ستجدين بعد حين عنى سلوة يا جليلة » .

فقات جليلة في شبه صيحة : « ومن ذا يُسَلِّيني عنك ؟ »

فضحك وقال : « ولدك الذي سيقبل بعد حين » .

فقات وهي تحرك رأسها على صدره : « ما يزيدني ولدي

إلا حبا لك » .

ثم استسلما معاً لأحلام المستقبل العذبة .

أصبح الصباح فقام وائل كماذنه مسكراً يريد الخروج ، وهمت
 جليلة أن تعيد عليه رجاءها أن يبقى معها في البت كما فعلت بالأمس ،
 ولكنها تذكرت جوابه وترددت ؛ إذ أيقنت أنها لن تجد منه في
 يومها إلا مثل جواب أمسها . فما كان سيد ربيعة ليرضى أن يطيع
 أمراته ويبقى في بيته من حشية قالة عرافة تُخيفه من اعتداء عدوه .
 فلبس في قبائل بكره أو تغلب من توقع عداوته الرعب في قلبه ،
 وما كلن ليتوارى من ذلك العدو لو وقف أمامه بسيفه مصلتا ، أو
 يرمحه مسدداً ؛ فقد عرف وائل بن ربيعة منذ صباه كيف يلقي
 الأعداء في وجه السيوف والرماح . وما كان ليطيعها فيتحدث
 شبان القبائل أنه خشي الخروج من بيته حتى تأذن له العرافة
 بعد سكون ثورة الأخطار .

تركته جليلة يمضى بغير مراجعة ، وجعلت تكاوح نفسها فيما
 تُحسُّه من الخوف ، فقد لبس زوجها التيمة السحرية ونام على
 الوسادة التي ذرت من تحتها الدقيق الأبيض ، ولعله قد مس بخفه
 الخطوط المرسومة عند مدخل الباب وهو داخل إليه في الليل ، فإذا
 فاته ذلك في أمس فلعله يصيب منه في خروجه ذلك اليوم ، ولن

تتخلى عنه الآلهة وقد قدمت لها القرابين عند العرافة من لبن وتمر ،
ومن لحم وسمن ، واكتفت بأن تخرج عند الباب وتحاول أن تجرّه
إلى الرسم السحري عنده حتى تُعلمئن إلى أنه عائد إليها في المساء
آمنًا سالمًا . فلما خرج استوقفته لتودعه ، ولكنه كان قد أسرع
فلم يقف إلا بعد أن تعدى الخطوط المرسومة بالديق ، واضطرت
هي أن تذهب إليه لتضع رأسها بين ذراعيه الممدوتين لها . ولكنها
كانت بادية الحيرة ، ثم نظرتها عن أنها تريد أن تقول له قولاً ولا
تجرؤ عليه ، ففعلن وائل إلى ذلك وعزاه إلى ما في قلبها من القلق
عليه . وأراد أن يُذهب ذلك الاضطراب عنها ، فقال لها باسمًا وهو
يضمها : « لا تراعى يا حليمة ، فهذه هي تيممك » . ثم أمسك
بمثلك من الجلد تحت ثيابه . فتبسمت جليمة وسرّى عنها بعض
التسرية وقالت له :

— سر في حراسة جميع الأرباب . أخرج اليوم إلى صيدك ؟

فقال لها وهو يمسح بيده على رأسها :

— لا . ليس اليوم الصيد يا جليمة ، فقد علمت أن الإبل لم

تشرب منذ خمس .

فصاحت جليمة في فزع مكتوم :

— إذن فأنت اليوم في الحى .

فتبسم وائل وقال وهو يرسلها في رفق :

— لا تُراعى يا جليلة ، فلن أتمرّض لجسّاس كما وعدتك .
لن أتمرّض له وإن تمرّض هو لى .

وسار عنها حتى أخفته كئيبان الوادى عن عينيها .

قضت جليلة ذلك الصباح وهى مكتئبة ، فلم تذهب إلى زيارة
أحد من أهلها ، وعاودها دوار الحمل فاستلقّت على الفراش حتى
يرول عنها . وبقيت كذلك ساعات تفكر فى أمر زوجها وأخيها ،
ورنّت فى أذنيها أقوال جسّاس وهى تحدّثه فى بيت أبيها ، وتمثّلت
لها صورته وهوى يخلق فيها نائراً ، واحتوشتها المخاوف فكانت
تارة تتصور زوجها وقد سطا بجسّاس ، ثم تتصور أخاها وقد سطا
بزوجها ، ثم يعود إليها الهدوء حيناً فتطمئن إلى حماية مناه وأوال ،
ثم تردّ إليها الوسوس فتزها مرة أخرى وتضيقها .

وفىها هى كذلك إذ سمعت صراخاً يتعالى من بعيد من ناحية خيام
أخيها جسّاس . وكانت فى الوادى المجاور ، فذهب ظنّها إلى أن
مكروها قد أصاب شقيقها . فقامت مذعورة وسيت دوارها وحل
الخوف على أخيها محلّ القلق على زوجها . وسارت تترنّح حتى
اعتلت جانب الوادى تتوقّل فى الرمال والصخور ، ثم هبطت إلى
منازل جسّاس فرأت فى ساحتها جمعا فأسرعت تهرول حتى
اقتربت منه ، فرأت سعد بن شمس الجرمى ضيف خالتها
البسوس ، واقفاً يتحدّث إلى من حوله بقصته . .

فسألت بعض الوقوف في لفظة : « أين جساس ؟ » .

فأشاروا لها نحوه ، وكان واقفا عند خيمة خالته في جمع مضطرب هائج قد قامت من وسطه امرأة تصيح صيحات متقطعة تلو على اللفظ الذي حولها . فأسرعت نحو الجمع الكثيف وقد داخلها شيء من الاطمئنان منذ عرفت أن أخاها لم يخرج بعد من بيته . وشقت الصفوف حتى صارت إلى جوار المرأة فإذا بها خالتها البسوس ، وهي حاصرة رأسها قد شقت درعها وتلطم وجهها في هياج يشبه الخبل ، وهي تصيح : واذلاه ! وكان جساس واقفا إلى جوارها صامتا والغضب يتطاير من عينيهِ . فاقرب من خالتها وحاولت أن تهدئ منها وأن تخفض من صراخها ، وقالت لها :

— ماذا أصابك يا حالة ؟

فلم تلتفت المرأة إليها بل استمرت تصيح وتكلم ، وهي بين حين وحين تصرخ صرخة مفرعة ترت في الوادي قائلة :

« واذلاه ! » . ورأتها تختلس النظرات إلى جساس وهي تصرخ كأنها توجه لسعات تأييبها إليه ، وهي تقول :

— ليتني لم أنزل سعداً في جوارى ، بل بعثته إلى جوار عزيز لا يناله الذل عنده . ليتني لم أرى يوما هذه المنازل ، ولم تظأ قدمي هذه الساحة ، فليس فيها من يحمي جاره ولا من يدفع عنه الاعتداء . وما زالت تهتف بمثل هذه الأقوال وتنتج بهنظراتها إلى جساس

وهو صامت مطرق أصفر الوجه كأنه يقطر السم من صفحة وجهه . ولم تستطع جلييلة أن تهدئ من ثورتها ولا أن تسمعها لفظاً من كلامها . فإنها كانت تهدر وتصرخ ، لا ينقطع صوتها ولا تتردد الألفاظ على لسانها . فذهبت جلييلة نحو جساس لتسأله ، ولكنه صرف وجهه عنها ، وقال في صوت الحاقق كأنه يتحدث نفسه :

— لو كانت خالتي في جوار عرير لما هات ولما هان ضيفها . ولو كانت في آل أبيها منقذ لحماها بنو تميم قومها ، ولكنها نزلت في جوارى ، فهذه ناقة ضيفها ترتع والسهم في ضرعها . وأشار بيده نحو ناقة تجرى بين الكتبان وهي تضطرب وتصيح صياحاً عالياً وفي ضرعها سهم مرشوق يهتز بين رجلها إذ تجرى .

ولم يُرد جساس أن يبق إلى جوار أخته فتحرك لتركها ، فأمسكت جلييلة بذراعه وقالت بحفاء :

— ماذا تقول يا جساس ؟ وما معنى كل هذا ؟
فنظر جساس نحوها في قسوة وتخلص من قبضتها وقال :
— لا أقول شيئاً سوى أنني رجل ذليل الجار . تُرعى ناقة ضيف خالتي بالسهم في ضرعها وهي في جوارى .

فأدركت جلييلة ما كان كله ، ولم ترد أن تطيل معه الحديث . إنه — بضير شك — زوجها قد بر يمينه ، ورمى الناقة القريبة

عندما رآها تَرد الماء مع إبل جساس .
ثم سمعت أباها يقول وهو ينصرف عنها :
« ولكنى سأأثّر . وحقّ مناة ليكونن ثأرى عظيما لناقة
جارى » .

فأسرعت جليلة من ورائه حتى أدركته وعادت فدت يدها
وأمسكت بذراعه وصاحت به :

— أنتأثر لناقة يا ابن مرة ؟ إنها لجمّة ضئيلة .
فضحك جساس ضحكة مرة وقال : « لأقتلن فيها فخلا » . ثم
مضى مسرعا يقصد نحو سعد بن شمس :

فشرّد خيال جليلة في كلمات أخيها : فقد عرفته لا ينطق لغواً
ولا يفوت أمراً عقد عليه سنته ، فما ذلك الفحل الذى سيقتله ؟ أى
فحل هذا الذى يقتله جساس فى الثأر لسراب — هذه الناقة
المجفّاء سراب ؟ وكادت المخاوف تتجسم لها تزيد من تهويل الخيال
لولا أنها صرفتها وردتها . فما كان لجساس إلا أن يقتل فخلا من
إبل زوجها فى انتقامه .

لقد كان لزوجها فحل ليس فى إبل العرب فحل مثله . هو
الفحل « غلال » الذى تُضرب الأمثال بعظم هامته وعلو قامته ،
وقوة هديره وشدة وطأه . فهو يريد أن يقتل هذا الفحل العزيز على
زوجها لكى يفجعه فيه كما فجّع جاره فى ناقته الهزيلة . وتبسمت

عند ذلك تبسم سخرية من أخيها الذي يُسِفّ ويدفعه حنقه
وحقده إلى مثل هذا الهراء .

ووقفت حيناً تنظر في اثمئزاز إلى خالتها الشعثاء وهي تصرخ
صراخها النكر في ثيابها المزقة ، ولم ترد أن تطيل الوقوف عند
مثل هذا المنظر الشع ، فعادت أدراجها نحو بيتها .

ولكن صراخاتها كانت تلاحقها وهي تنشد صائحة :
لمرئى لو أصبحت في داره منقذ

لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولسكني أصبحت في دار غربة

متى يعد فيها الذئب يعدو على شاقى
فيا سعد لا تفر بنفسك وارتمحل

فإنك في قوم عن الجار أموات
وكانت ألفاظ أخيها تعود إليها بين صرخات خالتها وتَرنّ
في أذنيها إذ قال : « لأقتلن فيها فخلاً ؟ » فنسائل نفسها : ماذا
لعله يقصد سوى أن يكون ذلك الفحل غلالاً .

وذهبت إلى فراشها عقب عودتها ، فاستلقت فيه ضميعة ،
ولا تزال الوسوس تهاودها حتى أقبل زوجها عند المساء ، فدخل
الخباء إليها قبل أن تهض للقائه . وقد سرى عنها عندما رآه باسمها
صرحاً كثير العناية والفكاهة . فقفى معها صدر المساء في سمر

ثم قاما معا فأصابا شبتا من الطعام فأنها لم تذوق منذ الصباح طعاما .
ثم جلس إليها يحدثها ويصاحكها حتى زال عنها أثر الدوار الذي
ألم بها ؛ ولكنه لم تكلم بشيء عن رمية ناقة سعد بن شمس
جار السوس ، ولم تفتح حليته بالأمر خوف أن يعرف منها
ما قاله جساس .

جاء في جوف الليل طارق يزور كليباً ؛ فالتحقى معه مكابا في جاب
الحيمة ، وجعل يساره بعض الحديث ، ثم مضى بعد حين وعاد
كليب إلى مكانه مع زوجته ، وأخذ يحدثها بذكر أيامه الماضية ومواقفه
الشهورة مع قبائل اليمن منذ سنين ، ولكنه لم يذكر لها كلمة عن
خالها السوس ، ولا عن الناقة سراب ، ولا عن أخيها جساس .
وكانت جليته منذ خرج الزائر تحب أن تستطلع من زوجها
الخبر الذي حمله الرجل إليه ؛ لأنها خشيت أن يمشى الوشاء بينه
وبين أخيها بالكذب فيزداد ما بينهما من الكره ، ولكنها لم
تجد وسيلة لفتح أبواب الحديث الذي يؤدي إلى ذلك الاستطلاع .
غير أن كليباً ذكر في عرض كلامه فحله غللاً ، وجعل يعدد
محاسنه بين الإبل ؛ فاستخلصت جليته من ذلك أن الزائر قد حمل
إليه ما قاله جساس ، وتهديده بالانتقام بقتل « غلال » ، فتنفست
الصعداء وقالت في نفسها : « إن كليباً لن يزداد إيفلاً في عداوة أخيها
ما دام قد عرف أن انتقامه ليس موجهاً إلا إلى فحل من الإبل » .

ماتت «سراب» ناقةً سعد بن شخبس الحرمي صيف البسوس .
وما كان موب ناقة ليقع على قوم مثل ما وقع موب هذه الناقة على
بنى مرة قوم جساس . لقد حاولوا جهد طاقتهم أن يترفقوا في
نزع السهم من ضرعها وأن يداووا جرحها ، وكانوا يتلهفون على
سلامتها كأنها مريض عرير يحيط العواد بفراشه .

ولما ماتت اهتر لها الناس وفضوا أياما في وجوم يتوجسون
من خوف ما قد تطالعهم به الأماسي والأصباح . ولكن الأيام
صرب أسابيع بعد أسابيع ولم يحدث حَدَثٌ مما كان يخشون ؛
فهدأت المخاوف وأخذ شبان تغلب يتفكهون فيما بينهم تهديد
جساس كليباً أن يقتل فحله «غلالا» ؛ فقد عرف العرب أن يثأروا
بطلب الدماء لرجالهم ، ولكن هذا جساس بثور لطلب فحول الإبل
انتقاما للنياق ! ثم هذا هو يسكن ويركد ويخشع بعد أن أظهر له
وائل بن ربيعة أنه يبر بيمينه ويحقق وعيده ، ولا يبيح لأحد أن
يستبيح حماه . وأى أمرى يكون هذا جساس إذا قلس بسيد ربيعة
المنيح الذي لا يلتفت إلى ورائه لمثله ؟ إنه تجراً واعتدى على فارس
تغلب الخفيف ، وكان اعتداؤه بدعة لم يجروا عليها من هم أعز منه
وأقوى جنانا ، حتى إذا ما سطا به كليب وأظهر له نواجذه غضبا

خشع ولزم الحدود ، وتحامى أطراف الحمى .
وكان جساس فى أثناء هذه الأيام يسمع الهمسات التى يتفكك
بها شبان تغلب فتقع فى نفسه وقع السهام ، وداخله من ذلك هم
مضن حتى حال لونه ، وصار لا يأنس إلى أهل ولا صحاب ، ولا يحضر
مجالس نكر فى نواديهم . فما كان أحد يراه إلا فى الأطراف البعيدة
الموحشة سائراً وحده ، فإذا أنس إلى أحد من الناس فما كان أنسه
إلا إلى فتى ضئيل من أهون بيوت بكر وأضعفها حولاً ، فى ضعيف
لم يشترك مرة فيما يشارك فيه الفتيان من لهو أو جد ، ولم يعرف أحد
له محلا فى أمر عظيم . كان هذا الفتى عمرا بن الحارث البكرى غريم
الكلب عساف الذى عرف الناس جميعاً قصته .

كان عمرو يحمل لوائل بن ربيعة صنفاً من الكراهية عجيباً .
لا يتحمل أن يسمع ذكر اسمه . فإذا سمعه اضطرب واختلج ومضى
فى سرعة تشبه الذعر ، ولكنه كان لا ينطق بكلمة ثم عن كرهه
ولا يشارك فى الهمسات التى يتهامس بها شبان بكر عن طفيلانه
وعسفه . وقد وقع فى قلبه هذا الكره العجيب منذ يوم بعيد ،
إذ كان يسير على مقربة من روضة وائل بن ربيعة فنبحه الكلب
عساف الواقف عند مدخلها وهجم عليه فزق ثيابه وعضه فى فخذه
فكاد يترع نساء . فجرى الفتى فى ذعر خيفة أن يراه الأمير
الخفيف فيوقع به عقوبة لا قبل له بها ، كما كان يوقع بكل من

تجراً واقترب من موضع عساف . وأحس عند ذلك ذلّة طمعت قلبه ، ولكنه لم يستطع أن ينفس عنها بكلمة إلى حميم . منذ ذلك الحين انقلب شعوره بالذلّة حقداً يأكل القلب ، وزادت كراهته عمقا وقوة على مر الأيام كلما تبين له مقدار عجزه عن الانتصاف من الأمير العنيف . وساء الناس منذ ذلك اليوم غريم عساف سخريةً وازدراءً .

فلما وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ورأى ما آل إليه أمر جساس من مباعدة الناس وانطوائه على نفسه ، أنس ذلك الفنى إليه فأطلعه على خبيثة نفسه ، فإنه إذا لم يستطع أن ينتقم بنفسه من الأمير العزيز قد يقوى إذا شاركه جساس بن مرة ، فهو في منسعة من أبيه شيخ شيبان وأخوته وأبناء أخوته ، وكلهم من فرسان بكر الذين لا يسلمونه ولا يتخلون عنه . ولكنه كان يحاذر في لقاءه خيفة أن يراه أحد من أتباع وائل فيشئى به إليه فيوقع به وقعة لا رحمة فيها ، وهو ضعيف ليس من ورائه من يمتز به . ولهذا كان لا يجتمع به إلا خلصا في ظلمة الليل في أمن من الأنتظار . فإذا ألم به ساعة من نهار لم يبق معه إلا إذا اطمأن على أن العيون لا تراهما معا . فإذا رأى أحداً قريباً منهما ترك صاحبه وذهب في طريق غير طريقه .

ولما مضت هذه الأيام بغير حدث جديد ، حسب الناس أن

الأمر قد انتهى إلى نهايته ، وأن جساسا قَنِيع بعزلته وعدل عن محاولة ما لا يستطيعه ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ونسى الجميع الحادث الذي مر ، إلا أن تكون فكاكة يتفكهون بها ، ويجعلونها موضع سمرهم والتندر في مجالسهم .

غير أن جليلة كانت دأمة الترقب والحذر ؛ فقد كانت تعرف أخاها وما كان يملأ قلبه من الغيظ الذي ظهر لها مما سمعته من قوله الحانئ كلما رآته ، فكاك لا تزال تنتظر الغد وما يأتي به ، وتحس في قرارة نفسها أنه إنما كان ينتظر الفرصة السانحة والفرصة الملائمة .

فكانت تجلس كل ليلة في خشوع قبل نومها ، تناجي مناة وأوالا وتدعوها ليحفظا لها زوجها المزير .

وخرج وائل في صباح يوم كعادته . وكان يقصد ذلك اليوم أن يتنزه عن الحى ، ويذهب إلى روضته ، وأمر بعض عبيده أن يتبعوه إليها ليعدوا له فيها طعاماً وخمراً .

وذهب إلى مرعى الخيل فركب فرسه الرباب ، ودعا كلبه عسافاً ليرافقه ، وسار وحده سيراً هيناً وقلبه ممتلئُ بنشوة الصباح ، والنسيم البارد يبعث في جسمه نشاطاً وفي نفسه خفة وسروراً . وهزه الشباب وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغنى بملء صدره ،

وبدت له الدنيا تفيض بالسعادة والجمال . ولح أثناء سيره شخصاً
 جائماً عند ثنية من ثنايا الوادى ؛ فلما وقع بصر الشخص عليه
 أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحرث الفتى
 الضئيل الذى كان يراه أحياناً يجالس عبيده فى مراعى الخيول ؛
 فلم يكثر به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بإسراعه هرباً عند
 مقدمه ، فلم يكن عجباً أن يسرع مثله ليبعد عن الطريق التى
 يسلكها سيد ربيعة .

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حياً يتأمل جمال
 منظرها ، ويملاً عييه من اخضرار أشجارها ونخيلها ، ونضرة
 أعتابها وزهورها ، وقد عقد الندى قلائد مشورة على أديم
 الأرض الزبرجدى ، وانتظمت حياته فى أسلاك نسج العنكبوت ،
 فبدت كأنها درر تتلألأ فى شعاع الشمس المشرقة . وفيما هو واقف
 بفرسه سمع كلبه ينبح نباحاً يخالطه انزعاج ، ثم سمع من خلفه وقع
 حوافر فرسين يقتربان منه ، فتكبر أن ينظر ورائه ، لعله أن
 الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعاً مبتعدين عن حماه ، ونق واقفاً
 ينظر أمامه ويتملى بحسن روضته . ولكن وقع الحوافر لم يبعد ولم
 يقف . بل أسرع وتقدم فى تجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ،
 وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من ورائه : « يا كليب الرمح ورائك ! » .
 فمرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، وقال فى

لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامي » .

وسار على رِسله فوق ظهر الرباب .

وما كاد كليب ينتهي من كلامه حتى أحس طعنة شديدة في ظهره ، فارتدى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتشحط في دمائه . ورسّت في أذنيه صيحات عدوه الوحشية ، ونزل جساس مسرعاً عن فرسه واقترب منه مكشراً كابن آوى إذا وجد جيفة .

فنظر إليه وائل نظرة تمثل فيها معنى الاحتقار والحنق ، واختلط فيها شعور النفيظ بالمجز والضعف ، وهمّ أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص الأرض بقدمه وتقلب في دمائه ، وما هي إلا لحظة حتى لحقه دوار النزيف ، واعرته غشية الموت . وأقبل عليه جساس ينزع الرمح من ظهره وهو يخلصه في قسوة ويقول : « ذق الموت أيها الطاغية » .

وفهق وائل فهقات ألم ثم غشي عليه . وكان يفيق من غشيته إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تمتمة خافتة لا تسمع ألفاظها ، ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدري من يخاطب : « أغثنى بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظر إليه ، ثم ضحك ضحكة مخيفة وقال في صرخة جشاء : « لا ابتل لك ريق أيها الطاغية ! ووقف يتأمل نزعته في سرور .

وكان عمرو بن الحارث في تلك الأثناء واقفا وراء جساس وهو يرتعد ، وقد علتة صفرة تشبه صفرة الموت ، فلما سكن وائل أشار إليه جساس أن يتقدم فأتى إليه متردداً ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتل بالحجارة حتى لا تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الحيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتفصّد عرقاً ويهذي هذيان المحموم ، وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مُمرّة ليحمل إليه النبا المشؤم ، ولكنه لم يملك نفسه في ركوبه فبدت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما مما اعتراه من الذهول .

كان الشيخ مُمرّة جالساً في فناء بيته مع بعض بنيهِ وحَفَدَتِهِ وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساساً يُقبل على فرسه راكضاً وهو عارى الركبتين ، فالتفت إلى من حوله وقال في فرع : « ما رأيت جساساً يركب كما أراه اليوم » .

ثم صاح بابنه وقد صار على مسمع منه : « ما بك يا جساس ؟ » فقال جساس في صرخة مفرّعة : « لقد طعنته طعنة يجتمع لها بنو وائل غداً رقصاً » .

فقال صرّة وقد قام مذعوراً : « ومن قتلت ويحك ؟ » .

فقال جساس فى وحشية : « قتلت كليبا ! » .

ثم رفع رمحہ فوق رأسه وجعل يلوح به فى الفضاء ، وقال فى ضحكة جنونية : « وأدرکت ثأر البسوس » .

فصاح أبوه وهو يرفع يده كأنه يريد أن يضرب :

— أ كليب فى ثأر سراب ؟

فقال جساس وهو يلوح برمحہ فوق رأسه :

— أنا ابن مرة . أنا جساس — لست ممن يُخفّر جواره .

فاتجه إليه الشيخ وأخذ حفنة من الرمل فرماه بها فى وجهه وقال صارحاً : « ويل لك من مشثوم منكود ! ماذا جلبت على قومك من الهلاك ؟ إذهب عني فلست من أهلى . إذهب عني فلقد سللت نفسى من جريرتك ! » .

فرفع جساس رمحہ وهزه ، وجعل يرقص فى سرجه كأنه

يتغنى وهو يقول : « فرع الشيخ من حوف الثأر ! » .

ثم نزل عن فرسه واقترّب من أبيه قائلاً : « دعنى أيها الشيخ وحدى . لست أريد حمايتك ، فقد عرفت أنك لا تجرؤ على الدفاع عني » .

فانتفض الشيخ فى غضب ، ونظر نحو ابنه المنحول لحظة وهو حائر ، واستغلق عليه التفكير والقول فلم يجب بكلمة ، بل وقف مشدوها ينظر إلى من حوله فى اضطراب ، وقد وقع رداؤه عن

كتفيه ، وسقطت عصاه من يده المرتعدة ، وصاح بعد حين بصوته المختنق :

— أين همام ؟

وكان أنأؤه وحَفَدته قد هبوا جميعا ، فوقفوا حوله في حيرة ودهشة ، وتقدموا نحوه يرفع بعضهم الرداء ليفطى به كتفيه ، ويمد آخر يده بالمصا إليه وهم سكوت من الحزن والحزن .

فصاح بهم الشيخ في حنق :

— أين همام ؟ أهو اليوم في لهوه ؟ أين هو ؟ إذهبوا إليه

فليجيء !

كان في ثورة نفسه يتحرك في اضطراب ، ويتردد متجها إلى جهة ثم عائداً إلى أخرى . ثم وقع نظره على سَيْح كان جالسا في جواره ، فراه جالسا لا يتحرك في مكانه ، وينظر نحوه في دهشة ، فد مُرّة إليه يديه كأنه يستنجد به في حيرته ، فقام إليه الرجل متباطئا ، ثم قبض على ذراعه وانتحى معه جابا . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع أحد حديثهما قال مرة — وهو لا يكاد يبين — : « ماذا ترى يا أبا عامر ؟ » .

فقال أبو عامر في هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ أيمود الأموات إلى الحياة ؟ » .

فنظر صرة إليه مبهوتا ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ في

كلامه هادئاً : « لقد كان ما كان ، ولم يبق إلا النظر في أمر القوم .
وأنت إذا تعاديت في لوم جساس خذلت بني بكر وبني شيبان إذا
احتجت إلى نصرتهم » .

فهذا سرّة قليلا وقال : « وماذا ترى يا أبا عامر فداؤك نفسي ؟ »
قال أبو عامر : « دع اللوم والجرجع واطهر للقوم شدة ؛ فإن
ذلك أدعى أن يقتصدوا في طلب الثأر ، وذمّر بني بكر وحرصهم
على القيام لنصرة جساس » .

وسكن الرجل قليلا ، ثم نظر إلى الشيخ مرة وقال له هامساً :
« يا أبا هام . أما إنها لطعنة حر أبي ! أما تذكر كيف كان كليب
يسومنا الذل ونحن لا نستطيع أن نرفع نحوه عيوننا » .

فانتفض مرة ، ومد يده مسرعاً فأمسك بذراع أبي عامر ،
وتلفت حوله حذراً ، ثم ذال هامساً : « أو ترضى يا أبا عامر ؟ » .
فقال الرجل :

« أما وحق الآلهة جميعاً ، لقد وددت أن طعنة جساس قد
مدت بها رماح بكر كلها . كان كليب طاغية يحمى المراعى ويمنع
الماء أن زده ، ويبالغ في طغيانه ، فيجعل كلبه يأمر سادتنا
ببناحه ، فلا يستطيع أحد منهم أن يرد عليه لفظاً » .

فتنفس الشيخ مرة ، وقال ولا يزال صوته هامساً :
« ولكنها الحرب يا أبا عامر ! هي الحرب الطاحنة والبلاء
العظيم » .

فقال أبو عامر :

« أراك سكنت إلى الدعة يا أبا هام ! وماذا تخشى من الحرب
وأنت فارس بكر العتيق . هل تسلس ربيعة القياد لمن يكره حر
الجلاد ؟ » .

فسكت الشيخ لحظة يفكر فيما يقوله صاحبه ، واستمر
أبو عامر فقال :

— « وما فضل تغلب على بكر حتى يستأثروا دون بني عمهم
بهذا الأمر ؟ أقنعت يا مرة بأن تكون صهر العزيز ؟ أقنعت
يا شيخ بكر بما يلقيه إليك بنو أبيك من فضلات عزم ؟ »
فصر الشيخ على أضراسه ، ثم سحب صاحبه من ذراعه
وعاد نحوه ولده وكان أهدأ عند ذلك قولاً .

ولما صار عند الجمع المنتظر ، قال مخاطب ولده : « نحن
للحرب يا ولدي ! أنت منا ولن تُسلمك بكر أبداً . لست أسلمك
حتى أقتل دونك مع قومي أو نشلها ناراً حامية على قوم الطاغية
الظالم » .

فلما سمع بنو شيبان قول شيخهم صرة اهتزوا وعادت إليهم
نفوسهم ، وتصايحوا : « يا لبكر ! قتل الطاغية ! » .

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعاتقه وقبل يديه وقال في
خضوع وصوته يكاد يختنق من التأثر : « لاعدمتك ناصراً يا أبي ! »

ثم أخذ رمحـه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدى والاعتداد بالنفس ، ويتغنى بأناشيد يدعو فيها قومه إلى حرب الطغاة .

وصاح مرة في قومه وقد تبدلت لهجته ، فقال : « يا بني شيبان ، سأضرب بأطراف العوالى ، وأبني الذل عن قومي وشرفي ؛ فما كانت بكر' ليخفر جوارها أو تستكين للطاغية » .
فقال أبو عامر : « يا بني شيبان ، من يكون للحرب إذا لم تكونوا فرسانها ؟ » .

فتصاعدت صيحة من القوم : « سنسل السيوف وندفع ظلم تغلب . لقد هلك الطاغية . سندفع البني ، ونحمي قومنا من عار الخضوع والذل . »

وأسرع الجميع إلى بيوتهم ينقلون النبا الخطير ، واختلى مرة وأبو عامر ساعة ، ثم بعثا الرسل إلى قومهم بالاستعداد للرحيل . فقد علما أنه لم يكن لشيبان بعد مُقام في جوار تغلب ، وأنه لا بد لهم من انتظار الغد وما يأتى به من الأحداث .

كان هام بن مرة مختلياً بصدقه المهلهل عدي بن ربيعة
 كما دتھما كل يوم يشربان الخمر عند ربوتھما المختارة في عزلة من
 قومھما . وجلسا يلعبان النرد وھما يرشقان الشراب ، وانتھى
 اللست ، وكان المهلهل غالباً ، فد يده إلى كأسه مرتاحاً ورفعھا
 فنظر فیھا إلى الخمر المصفاة وجعل بشمھا في شغف ، ثم رفعھا إلى فھ
 وهو يضحك ضحكة ماجنة ، وقال ناظراً إلى صاحبه :

— أبشرى يا أرامل ربيعة ! إنها جرور من خير مال هام
 ابن مرة .

فرفع هام كأسه لشرب منها ، وقال وهو يجيب بضحكة مثل
 ضحكة صاحبه :

— ما كانت أموال هام بن مرة لتباح إلا للأرامل !

ثم وضع الكأس وقال للمهلهل :

— دست آخر إذا شئت أن تعلم سائر أرامل تغلب .

وكان المهلهل قد شرب كأسه في جرعة ، فقال وهو يعص

شفتيه :

— مهلا يا عدي ! فإن حظي اليوم غالب .

ووضع الكأس ، وأخذ الرد في يده فضرب به ولعب لعبته
فاذا بالرد يواتيه بلعبة بارعة ، فصاح صيحة فرح ولعب اللعبة
وهو يقول :

— لئن طال بنا المجلس لم أدع لك مالا يا همام .

فقال همام وهو يضحك :

— أرى الحظ يواتيك يا عدى منذ اليوم .

ثم رمى الرد فخرج له أقل وجوهه غناء . فضحك الصاحبان
معا ، ورفعا كأسيهما فرشفا منهما رشفة ، ثم لعب همام لعبته وقال :

— أرى السعد لك خدأ ياعدى . يواتيك فى لعبك كما يواتيك

فى حبك . هل رضيت عنك سلمى ؟

فرمى المهلهل الرد وهو يقول :

— ما أبالى إذا هى لم ترض .

ونظر الصديقان إلى الرد فاذا به لعبة بارعة . فضحكا معا

ولعب المهلهل لعبته وهو يقول :

— أما قلت لك لئن أدع لك مالا . أبشرى يا أرامل

بكر وتغلب بجزور أخرى من أموال همام !

واستمر الصاحبان يلعبان ويتسامران ويشربان حتى مالت

الشمس للمغرب . وكان المهلهل فى كل مرة غالباً حتى قر صاحبه

بمشر جزر من ماله پنحرها لأرامل بكر وتغلب . ثم جلسا

يتناشدان آخر ما قيل في قبائل العرب من شعر ، وجعل المهلهل
يشد صاحبه بعض ما قاله من الغزل في صويحباتهما اللاتي كن حيناً
يشاركنهما مجالس المحون ، وحيناً يفاضنهما ولا يحضرن مجلسهما .
وفيما كان المهلهل يشد بعض شعره رأى صاحبه يلتفت إلى ناحية
من الوادى وينظر إليها في اهتمام . فقال ضاحكاً :

— أراك فاتراً عن سماع الشعر يا همام . كأن شعري لا يمجبك .
فلم يجبه همام إذ كان منصرفاً بنظر إلى أسفل الوادى ؛ فالتفت
المهلهل ومد عنقه ليرى أين ينظر صاحبه ، وقال له في مجون :
— هل أقبلت سلمى ؟

ولكن هماماً لم يجبه ، بل قام من مجلسه وسار هابطاً إلى
الوادى الذى تحتهما ، فاتبعه المهلهل بنصره فرأى جارية تقود
فرساً وتشير إليه تستعجله أن يذهب إليها .
فقمع المهلهل ينتظر عودته وملاً لنفسه كأساً وأخذ يتغنى وحده
بشعره حتى رجع صاحبه وهو ممتقع اللون مضطرب ، يكاد يتمثر
في خطاه ، فقال له المهلهل ضاحكاً :

— ماذا حملت إليك الجارية ؟ أهو موعد جديد ؟

فقال همام متردداً وهو يحاول الانشام :

— هات لى كأساً .

وكان الصديقان قد تعاهدا على الصدق لا ينكر أحدهما من

صاحبه حديثاً ؟ فقال له المهلهل معاتباً :

— أراك تكتم عني سرّك يا همّام .

فقال همّام مرتبكا :

— أما إنه لقول لا أصدقه .

فقال المهلهل ضاحكا :

— لعلها متنسك بغدر سلمى ؟

فقال همّام في وجوم :

— لا أبالي اليوم سلمى !

وكان المهلهل سادراً في الخلاعة لا يتصرف عن أحاديث الخمر

والنساء ، فقال :

— إذن فهي مى أو أميمة .

فقال همّام متكلفاً الابتسام :

— أى زير أنت يا عدى !

فضحك المهلهل من قوله . فما كان أحب إليه أن يلقب بهذا

اللفظ الماجن الذى سماه به أخوه الحبيب وائل بن ربيعة . لقد

سماه زير النساء ، فتلقف الناس عنه ذلك الاسم ، فما كانوا

يذكرون المهلهل إلا به ، ولكن المهلهل كان يحب أن يسمع

اللقب الذى اختاره له الشقيق العزيز على ما به من تمثيف ولوم .

وماذا عليه أن يسميه الناس زيراً ؟ فهذا أعذر له أن يسدر في

غوايته ، وأحرى بأن يحمل الناس على تركه لسانه وخمره ، ولا بأس عليه منه إذا كان هو يفوز بالذات . فقال لصاحبه :
— دع ذكر هذا ، فأنت أولى بهذا الاسم منى . ولكن ما قالت تلك الجارية ؟

فلم يكن لهمام بد من أن يصدق صاحبه ، وقد ألح عليه بالسؤال ، فقال جاداً :

— لقد زعمت الجارية أن جساساً قتل كلياً .

فصحك المهلهل ضحكة عالية ، وقال وهو يعلأ كأسين :

— تقول جساس قتل كلياً ؟ أما إنها لفكاهة من جارية

لسكاع . إن جساساً لا يقوى على أن ينظر إلى طهر وائل بن ربيعة . خذ هذه الكأس .

فتناول همام الكأس وشرب منها قليلاً ، ونظر إلى صديقه

وهو يرفع كأسه ويتجرعها ، وشعر كأن حملاً ثقيلاً ينزاح عن عاتقه

عندما رأى المهلهل لا يصدق النبأ . وقال له مداعماً :

— أترى لو صدقت الجارية . أكنت ناثراً بأخيك ؟

فتجهم وجه المهلهل وقال متلعماً :

— وحق مناة ليس له من كفاء إلا أنت .

فقال همام : ..

— أتحب أن ترانى قتيلاً يا عدي ؟

فتقبضت عضلات وجه المهلهل ، وبرق عينيّه ، وهر رأسه في عنف وقال :

— والله ما أدري أيكما أحب إلى يا همام . دع هذا الحدث فلست أحبه .

فتنفس همام في حزن ، ونظر إلى صاحبه وقد مالت رأسه واختلت حركته ، حتى صار لا يستوى من السكر ، وكان الليل قد أقبل ، وهبط على الوادي الظلام ، فنظر همام حوله وقال :

— أحس التعب يا عدى ، والليلة مظلمة .

فقام المهلهل وهو يترنح ، وأسنده صاحبه من ذراعه حتى ركب فرسه عائداً إلى منزله ، ومضى همام إلى الفرس التي أتت بها الجارية ، وسار مع صاحبه حتى نية الوادي التي تفرق عندها الطريق إلى منزلها ، فودعه ضاحكاً ، وأسرع إلى مضارب خيامه ، فرآها خالية وقد ارتحل القوم عنها كما قالت له الجارية . فهمز جواده وأنطلق في أثر قومه وهو يلتفت بين حين وحين إلى ورائه في الظلام لعله يرى ضوء نار يعلأ به عينيّه من البيار العريزة التي شهدت لذاته ووثبات لهوه مع صديقه الخليل عدى ابن ربيعة .

ولما بلغ المهلهل منزله طالعه نجبة من قبلها . فدار به رأسه المخمور وخيل إليه أن الضباب يغطي ناظره ، ثم رأى أمامه النساء

يندبن ويبكين ويشققن ملابسهن . فمجب و حار كأنه في حلم مزعج
و نزل عن فرسه يسألهن عما أصابهن في لسان معوج ، فكان
لا يسمع إلا صياحاً أو سباً . ثم رأى الرجال يضطربون في الظلام
ويتنادون في فزع ، وقد أقبل بمصهم على سلاحه يكسره ،
وبعضهم على خيله يعقرها ، فكان ذلك كله عجبا من أمرهم لم يفهم
منه شيئا إلا أن يكون الحبل قد أصابهم . ومرت في خياله الفاتر
صورة كليب ، وتذكر قول همام إذ قال له حديث الجارية ؛ وساءل
نفسه : أكون جساس قد قتل كليباً ؟ أليس هذا الذي يراه
بعض أحلام الحجر ووساوسها ؟

واقترب من الناس يريد أن يسألهم ، فجعلوا ينظرون إليه
في ازدراء ثم يصرفون عنه وجوههم ، وسمع قائلاً منهم يقول :
— لم يبق لنا إلا هذا السكير المسجن ، الذي لا يكاد يفريق ،
إنه آت هذه الساعة من مجلس مجونه .

ومضى في سيره حتى بلغ ساحة منازل ، فصاح بمن هناك
وقد عاد إليه بعض وعيه :

— ما بالكم تكسرون السلاح ؟

فأسرعت إليه أمراءه وصاحت به وهي حائرة :

— قتلوا كليباً وأنت منصرف إلى شراك ولهوك !

فنظر إليها المهلهل في غضب ، وقد وخزته كلماتها وثار الدم

في رأسه حتى ذهب عنه أثر الحجر ، وقال لامرأته :

— ما ذا تقولين ؟ لقد كذب من يقولها .

ورفع رأسه ، واعتدل في وقفته ، وتغير لون وجهه ، فصاح
به القوم في غضب :

— قُتِلَ النّيع العزيز ، فكُنْ حيث شئت . كن حيث شئت
فما تراك تُبالي .

فأربد وجه المهلهل ، ونظر إلى قومه غاضباً ، واكنسب مظهره
عزماً لم يعمده فيه أحد ، وقال كأنه يُعيق من حلم : « قتل كليب ! »
ثم ذهب إلى جانب من الفناء ، فجلس على صخرة ووضع ذقنه
على يده ، وجعل ينظر إلى القوم حيناً ، وهم في شغل عنه بما هم
فيه من اضطراب وجزع ، يكسرون السيوف والرماح ،
ويتصايحون لكي يبعثوا إلى الخيل ينحرونها . فاشتعل قلب المهلهل
غضباً ، ودبت فيه ثورة عجيبة أحس نفسه تيجش بها ، فوثب من
مقعده ، وصاح صيحة ترددت أصدائها في الليل المظلم :

— أيها الحق ! ماذا تفعلون ؟

فنظر إليه القوم في عجب ، ورأوه يتجه إليهم ، فوقفوا
ينظرون ماذا يريد منهم ذلك السكير ؛ فلما جاء المهلهل إليهم
وقف رافعاً رأسه وعيناه تلعبان ، وضوء النيران الملتبئة تتلاعب
على وجهه المربد ، وقال لهم بصوت أجش :

— إنكم تسبوننى منذ الليلة ، وما أنتم إلا كبعض النساء .
أراكم تكسرون السلاح وتقتلون الخيل ، وأنتم الآن أحوج
الناس إليها .

فنظر إليه الرجال لحظة لا يصدقون آذانهم إذ يسمعون .
أهذا المهلهل الذى يكلمهم ؟ واسنمر المهلهل فقال :

— دعوا الحزن للنساء ، يشققن الثياب ويصبغن الوجوه ،
ويصرخن ويبكين . أما أنتم ، فأتخذوا السيوف ، وأعدوا الخيل ،
وقوموا الرماح . دونكم الحرب . فاستعدوا للحرب ضروس .

ثم ترك الناس وقوفاً ، وذهب عنهم صامتاً مطرقاً ، يملؤه
شيء من الخزى . حتى إذا ما صار فى بيته ارتعى فى ركن وجعل
يبكى وحده ، وبتمثل ما هو فاعل إذا أصبح الصباح .

واجتمع نساء تغلب فى تلك الليلة للنواح فى بيت سيد ريبة ؛
وعلا صراخهن حتى ترددت أصداؤه فى جوانب الوديان .

وكان فى وسطهن امرأة طويلة القامة ، سمراء اللون ، هيفاء
دهماء . قد شقت ثيابها ، ونشرت شعرها الأسود الطويل ،
وعفرت وجهها الجليل ، وكانت تحتلج وتهتز من شدة البكاء .
وكان النساء يشرن إليها ويتهامنن بين صراخهن :

— هذه جليلة ابنة مرة سبب البلاء . إنما هو أخوها جساس
وقومها الجناة .

وهاجت لإحداهن ، فصاحت في عويلها وهي تنظر نحوها :

— ما مُقام الأعداء بين ظهراينا ؟

فنظرت جليلة بعينها المحمرتين ، وقالت بين شهقاتها :

— إنما أنا المفجوعة الكلومة .

فصاحت بها أخرى في مرارة :

— إنما أنت وقومك سبب البلية . أخرجني عنا أيتها البكرية .

ثم تعالى الصراخ والسباب من جواب الفناء .

فقال جليلة وهي تشج بالبكاء :

— علم الله ما أقاسى وما ألاقى ! إنما المصاب مصابي .

فعلت العجبة مرة أخرى وأنهاالت عليها قذائف السباب :

— إنما أنت شامته . إنما أنت عدوة . إعدى عن منازلنا .

لا بقيت بيننا .

فقامت جليلة غاضبة ، وقالت وهي لا تزال تحتلج وتضطرب :

— كيف أبعد عن مناحة زوجي ؟ إنني صاحبتة ، وأنا التي

فجعت فيه . وهذا الجنين الذي في أحشائي من دمائه . ولئن كان

مصابكم واحداً فمصابي مضاعف : هذا زوجي قتل ، وهذا أخي

مطلوب بدمه . فنواحكن مصانعة ومجاملة ، ونواحي تفجع وتوجع .

بعض نفسى يبكي على بعض ، وبعض دمي يثور ببعض ، ولو شئت

لسرت مع قومي ، ولكني آثرت البقاء في تغلب ، حينئذ إلى قوم

صاحبي ، حتى لا يولد هذا الجنين بين قومي فبكون فيهم غريباً
عدواً .

فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلاً
ويطردنها ، وأقبل بعضهن نحوها يُردن إخراجها دفماً والإيقاع
بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس
الحزن لسانها ، وأسرع عبدها فأعد لها مطبة . وساربت حتى
ركبت في طريقها ، واطلقت تتبع قومها وهي تقول : « وا حر
قلباه ! قتل الحبيب ، وقاتله أخى ! نَعْساً لمناء ، وويللاً لأوال » .

ثم جعلت تنشد ، والدمع شرقها :

فمَلَّ جَسَاسٌ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعٌ طَهْرِي وَمُدْنٍ أَجْلِي
يَا قَتِيلًا قَوْضَ الدَّهْرِ بِهِ سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعاً مِنْ عَلِي
هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتَهُ وَانْثَنِي فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
خَصَنِي قَتْلَ كَلِيبٍ لَفْظِي مِنْ وَرَائِي وَلَفْظِي مُسْتَقْبَلِ
يَشْتَفِي الْمَدْرَكُ بِالنَّارِ وَفِي دَرَكِي نَأْرِي نُكْلَ الشُّكْلِ
وكاد الحزن يذهب عنها لبها ، وهي سائرة وحدها تطلب آثار
قوم أيها ، ولا يصاحبها في ظلام الليل إلا عبدها يقود ناقها .

وأصبح الصباح عليها وقد أدركت قومها ، وسارت معهم
يمجدون السير يطلبون أرض اليمن ليمتنعوا بها ، ويعتصموا من
قتال قوم كليب .

اجتمع بنو تغلب في ناديمهم ، وقد أقبل الليل وأخذ البرد يشتد ويقسو . وكانت النيران الموقدة في وسط الفضاء ترسل ضوءها على الوجوه ، وتلاعب فوقها في خفوف ، وتمتزع بالظلال فلا تبدو اللامح فيها إلا غامضة مبهمة . وكانت ظلال الأشخاص تراقص على جواب الكشبان المحيطة بالفضاء ، كأنها أشباح متحركة من الحان ، تخلع على المجتمع رهبة شاملة .

وكان القوم في اجتماعهم قلقين لا يستقر بهم حديث ، ولا ينظمهم سمر ؛ بل كانوا متفرقين في حلقات متباعدة ، وقد مالت كل جماعة إلى ناحية تتناجى في كثير من الحلق ، وتهب فيهم بين حين وآخر عاصفة من الهياج ، فيملو ضجيجهم ويحتدم جدلهم ثم يعودون بعد حين إلى التناجى القلى الحاسى ، والمحاور المضطربة .

كانوا في ذلك الاجتماع ينتظرون عودة رسلهم الذين ذهبوا وراء بنى عمهم بنى بكر ليفاوضوهم في تدارك الأمر ومداواة الجرح الذى أصابهم بقتل كليب ، قبل أن يسيروا إليهم بطلب الثأر . وكان يظهر من حديثهم المضطرب أنهم لم يكونوا متفقين على رأى ،

ولا متحدين في غاية ؟ فكانت فيهم طائفة غير راضية بالانتظار ، تنكر لإرسال الوفد للمفاوضة مع قتلة زعيمهم ، لا تفتأ تضيح مطالبة بالهوض إلى طلب الثأر ، وتنادى بالحرب لا ترضى فيها يهوداه ولا مسالة ؛ على حين كانت طائفة أخرى تشفق من الحرب وويلاتها ، وتنادى بالأناة والصبر ، مؤملة أن ينزل بنو عمهم البكريون على حكم العدل والإصاف ، فيجيئوا إلى ترضية شريفة تطمئن لها نفوسهم ، وتقنع بها كرامتهم .

وكانت هذه الطائفة تظهر في جدالها الحائق أنها لا تريد الحرب ألفة من زعامة ذلك السكير الساحن ، عدى بن ربيعة (المهلل) ، ذلك الذي عرفته تغلب كلها ، لا يقطع يومه إلا على نوم من أثر الخمر والنساء . فهل كان مثل هذا الخليع ليخلف كلياً على زعامتهم ؟ وهل كانوا ليلقوا قيادهم إلى ذلك الشاب المعجب بجماله ، التياء في نعيمه ، الذي لا يحسن إلا المناغة والتفنى ، والذي جمل وكداه المنادمة والفزل ؟ هل كانوا ليأتمنوا مثل ذلك الشاب الدامر على عز تغلب ومجدها ؟

وكان في صدر النادى فارس تغلب أبو نيرة ، جلس محتباً بسيفه ، وتسكاد لحيته السوداء تلمس ركبتيه وهو مطرق لا يلتفت إلى من كانوا حوله ، وضوء النار الملهية تقع على وجهه فتظهر فيه أخاديه وندوبه سوداء تسكاد تملأ صفحته ؛ وكان يسمع ما يتقافف

به الشبان والشيوخ من عبارات المجادلة ، ولكنه كان يتفطرش فلا يدخل في شيء من أحاديثهم الخائفة .

كان أبو نورة يفكر عند ذلك حريئاً فيما تؤول إليه أمور تغلب إذا هي تمجلت الحرب ، فإنه لم يكن إلا أبا عشيرة بين العشائر ، لا يستطيع أن يقود عشيرته إلى الحرب وحدها ، وقد علم أن تغلب قد افطرت عقدها فلا تستطيع أن تحتجم على واحد من فرسانها ، ولم يجد حوله في شبان تغلب أو كهولها ، من يستطيع أن يلم الشمل حوله ويقود قومه جميعاً إلى النصر .

كانت تغلب قد استنامت إلى بطولة أميرها وسيدها وائل بن ربيعة الذي فجموا فيه منذ يوم ، وكان وائل مستأثراً بالرعاية والقيادة والبطولة ، فلم يدع لغيره مجالاً إلى جواره . كانت تغلب كلها رعية له تطيع إذا أمر ، وتسير إذا سار ، وتتجه حيثما أشار ، فلم يبنخ فيهم من تعود الأمر والقيادة ، ولم يعتقد الناس أن يلتفوا حول أحد من رؤسائهم ، إذ كان وائل لا يدع لأحد منهم رئاسة ولا سلطاناً ولا جاهاً . كان يستأثر بالسلطان كله في غيره ، فلا يرى أحداً من فرسان قومه يرفع رأسه إلى زعامة حتى يبطش به ويذله وينزع منه كل مطمع فيها . لم يكن في عشيرة وائل نفسها من هو جدير بأن يقود الناس في تلك الأزمة الشديدة ، فلم يكن له ولد ، ولم يكن في أخوته من يستطيع أن يسد مسده ؛ فهذا هو

أخوه عدى المهلهل ، لا يقطع أيامه ولياليه إلا على مواعيد في مجالس اللهو والشراب . وماذا يستطيع مثل المهلهل الماجن أن يصنع إذا الحرب شمر عن ساقها ، وفتحت أهواء الموت للرجال ؟ كان أبو نيرة يفكر حزينا في مصير تغلب . وما كان له أن يسارع إلى حرب لم يكن قومه مستعدين لها . فإن الحرب إذا وقعت لا بد أن تكتشف عن تغلب سر العز. الرائف الذي أسبله عليها بظلمها الفذ وائل بن ربيعة . كان الحرن يأخذ على أبي نيرة أسباب التفكير وهو جالس في صدر النادى ينتظر عودة الرسل الذين ذهبوا لمفاوضة بنى بكر في مصلحة بنى عمهم وإرضائهم من قتل سيدهم .

وكان كلما سمع تقريع الشبان وسبابهم وثورة مجادلهم تحرك في موضعه متألماً ، ولكنه كان يحاذر أن يطق بحرف خوف أن تنفجر حفيظتهم فيجرفهم المهلهل معه إلى الحرب في دعوة ، وهم لا يدركون ما يدركه ، ولا يعرفون ما يعرفه . لقد عركته الحوادث في حياته وحلب الدهر أشطره ، وجرب من الأمور ما لم يجرب هؤلاء الأغرار — المهلهل الماجن وشبانه الذين معه — هؤلاء الأولى يتحرقون إلى الحرب ، حتى إذا ما أوقدوا نيرانها وسارعوا إليها ، كانوا أسرع الناس إلى الجزع منها ، وإلقاء اللوم على زعمائهم الذين لم يتبصروا ولم يتخذوا لها عدتها

ولكنه لم يقدر على أن يبقى على صمته طويلا ، فإن الجدل بين التبان والسيوخ قد سحي وأوشك أن يصير إلى بضال وعراك . ولم يطلق المهلهل البقاء في النادی ، فخرج إلى الفضاء ينتظر عوده الرسل في قلق ؛ وتبعه بعض أصحابه من صفار القوم وهم يسخطون ويسخرون . ثم نهض شاب يريد أن يتسع المهلهل فقال في تهكم : — ماها تنظرون هنا أيها القوم ؟ إن الوفد الذي بعثناه لكي يركع عند قدمي شبان سائلا أن يعموا عليا بالصلح ، لم يعد إلينا منذ ثلاث . فلنذهب إلى بوتنا . فأنحن أهل للحروب ؟ فتحرك أبو نيرة قلقاً ، وحاول أن يصرف نفسه عن الحوار ولكن قام بعده شبان يريدون الخروج وراء المهلهل ، وأوشك الجمع أن ينفض من حول أبي نيرة .

فأشار إليهم بيده أن يترثوا ، ثم قام يتكلم فقال : — لقد علمتم يا معشر تغلب أنني أبو نيرة ، أول مراسلكم عند اللقاء ، وآخرهم عند انقسام النوء . وعلمتم أنني كنت عند وائل بن ربيعة في أكرم مكان ، فإصيب فيه بعد المهلهل وقومه أحد مثل مصابي فيه . ولو كان أحد من تغلب يتحرق قلبه على طلب الثأر ، لكنت أنا ذلك الرجل قبل سواي . ولكن الحرب تعلم وتمتلك ، إذا كشرت عن أنيابها وشمرت عن ساقها ، ولا يستطيعها إلا من هركها وصبر على حد نابها ؛ ولإني أشفق عليكم

منها إذا أنتم سارعتم إليها وراء من قد عرفتم أمره . فإن واثلاً لم يخلف من ورائه من أهله من يقوم مقامه ، والحرب لا يقوى عليها ذلك السادر في لهوه ، الذي لا يكاد يُفنيق من شرابه .

فعلت من جواب الوادى مهمة تعالت حتى تجاوزت الأصوات فيها بالجدال العنيف والسباب ، وهمّ بعضهم إلى بعض بالسيوف . فصاح أبو نويره غاضباً :

— على رسلكم أيها الفتيان ! فما هذه إلا طلائع الخذلان .

فقام شاب من أقصى النادى يهز رمحاً في يده وصاح :

— لقد حملتنا على الدّية ، ورضيت لقومك الدّلة . هذه بكر

ترفع ذيلها وتمتنع . وهل كان جديراً بنا أن نأخذهم بغير السيف ؟ ما هذه الثروة التي لا تريدنا إلا دُلاً . أما أننا سنصير في العرب مُثلة وأحدوثة ؛ إذ وترنا قوم في عزيزنا فبعثنا وراءهم نسألهم أن يمنوا علينا بالسلام . أى عار جلبتم على قومكم يا شيوخ تغلب !

وعلا الضجيج مرة أخرى ، وترايدت ألفاظ السباب . فقام أبو نويره وأشار بيده مرة أخرى حتى سكت الناس ، فقال في صوت هادى تشبه نغمته أن تكون اعتذاراً :

— لقد كان حقاً علينا أن نعتذر إلى بني عمنا قبل أن نبدأ

حربهم . ولقد عرفتم أن العرب لا ينصرون الظالم ، ولا يؤازرون من أعتدى . لقد قتل جساس كليياً ، وذهب إلى الناس يزعم أنه

نار عليه لطفياه وقتله لظلمه . وذهب الناس عنه بين مصدق ومكذب . فإذا نحن مجئنا إلى الحرب بادىء البدء لم نذهب إلا بكلمة مصدوعة ، ورأى متفرق . فإذا كنا قد آثرنا أن نرسل إليهم رسلنا ، فما هذا إلا لكي نُعذر إليهم ، فنكون بهذا قد قنا بما يجب علينا من رعاية الحرمة ، والحق الذي يوجبه الرحم بيننا وبين بني عمنا . فإذا هم أبوا أن ينزلوا على حكم الحق ويُرضوننا بالقصاص من الكفاء ، سرنا إليهم وكنا عند ذلك يدأ واحدة . وسرى قبائل العرب عند ذلك من ورائنا تشد أزرننا ، وتقوى عضدنا . ولعل قبائل بكر لا تُجمع على الظلم ، فيقعد بعضها عن حربنا ، أو يمجزون عنا فيسلمون لنا المجرم الذي ورننا . فإذا لاقتنا شبان ظالمة بمد هذا ، كان الحق يخدمهم ، ولم نجد من ورائها من العرب من ينصرهم .

ولما انتهى من مقاله ، ارتفعت الأنظار إليه شاخصة لا تطرف ، كأنها تحملق فيما وراء الأفق البعيد تستشف ما وراءه . وبقى أبو نيرة صامتاً يدير بصره في القوم لحظة ، ثم هم أن يعود إلى القول ليتيم ما بدأه من الأثر ، فإذا بصوت ناقة نحن وترغو في أنين متقطع عميق ، تحمله الريح في الليل الساكن من بعيد . فسكت أبو نيرة وأصغى بأذنه إلى الصوت ، وسكن الجمع في مجالسه ينصت ، فقد عرفوا أن تلك ناقة الحرث بن حى أحد الرسل

الموفدين إلى بكر ، وكادت الناقة والدة في الحى تركت فصيلها ،
فما كادت تعود وتقترب من موضعه وتشم رائحته حتى ضجت له
بالحنين .

ومضى بعد ذلك حين ، خرج فيه جماعة يتلقون الوفد ، وبقى
آخرون ينتظرون ؛ ثم أقبل الرسل وأناخوا إلهم وأتوا إلى النادى
يحيط بهم جماعة الشبان ومعهم المهلهل مشرق الوجه مهللاً .
ولما سلم القوم واطمأنوا فى مجالسهم حول النار بين الكتبان
الناعمة ، قام أبو نيرة يبطء وهدوء ، وقال يخاطب كبير الوفد
الحرث بن حى :

— إذا صدق الظن ، وأصاب الحس ، فقد عدتم من بكر
بسيوف مصلته ، ورماح مشرعة .

فساد الصمت لحظة ، ثم رفع الحرث رأسه وتكلم بصوته
العميق وهو مطرق فقال :

— سيعرفون غداً أنهم ظلموا وما عدلوا ، وستقيم تغلب
حقها على حد السيف ، وتنال منهم بالقسر ما أبوا بالسلام .

فتحرك الشبان فى مجالسهم قلقين ، وهما بالوثوب غاضبين .
فقال أبو نيرة يخاطب الحرث :

— ألم تنصف بنى عمك يا أبا حى ؟

فقال الحرث فى تردد :

— لقد أنصفنا بنى عمنّا فما أنصفوا . طلبنا إليهم أن يسلموا
إلينا جساساً يقتله في كليب فنحقق بذلك بيننا اللماء ، فقال أبوه
مُصرة : « إنه ركب فرسه وضرب في الأرض ، فهم لا يدرون أى
البلاد انطوت عليه » . فطلبنا إليهم أن يسلموا لنا أخاه هماماً فهو
كفء كريم يقتله نقتلنا . فقال مُصرة ساخراً : « إن هماماً
أبو عثيرة ، وعم عثيرة ، وأخو عثيرة ، كلهم بطل فارس ،
ولن يسلموه لو أردب أن أدفعه إليكم لنقتلوه بجريرة غيره » .
فقلنا للشيخ : إذن فقد رصينا بك أنت لنكون مطلقاً لثأرنا .
فقال الشيخ في عناد : « والله لا أسلم نفسى قبل أن أجول في
الحرب جولة وأموت مناضلاً » . ثم قال فى كبرياء وغلظة :
« ولكنى أعرض عليكم غير هذا ، أعطيك ألف ناقة سود المقل
لتكون دية كريمة لقتيلكم ! » .

وسكت الحرت لحظة ، وقد بدا على وجهه النفيظ ، وانفجر
الجلوس فى غصبة واحدة ، فلم يستقر أحد منهم جالساً ، ولم يبق
فيهم أحد صامتاً .

وصاح المهلهل وقد كان إلى ذلك الوقت ساكناً :

« واكليباه ! يقتل وهو العزيز ، فى جزور من الإبل . ثم
لا يبذل فى دمه الفالى سوى الجزر . واكليباه ! هل كنت لتباع
بالبنياق حتى يشرب القوم ثمنك لبناً ؟ » .

وعلت على أثر قوله ضجة تصم الآذان . وتصايح الشان من جوانب النادى : « ويل لبكر ! الحرب والفناء لبكر ! » .

ثم نظروا إلى المهمل وقد علا وجهه بريق الانتصار ، فقام ليتكلم ، واتجهت إليه الأنظار ، فقال :

« لقد علمتم أن كليياً كان لكم عراً ومجداً ، به سدنا ، وبسيفه انتصرنا وعلت كلتنا . ولقد أكل الحسد قلب أعدائكم فلم يجدوا لكم رزءاً أشد عليكم من فقد كليب ، ولم يعرفوا جرحاً أوجع فيكم من طعنة فؤاده . فهم إذا أصابوه لم يقصدوا إلا محكم ، ولم يطمعوا من وراء مقتله إلا أن يسودوكم ، فوحق مناه وأوال ، وحق السيف والرمح ، وحق المصاب الفاحع ، والظلم الموجه ، لناخذن ثأر كليب حتى لا يبقى في بكر موضع ثأر ، ولناخذن بحقه كاملاً ، حتى لا يبقى عضومه أو جارحة لا ثأر لها ، بل لناخذن بثأر الشئع الذى كان يربط به عمله ، نقتل به عرياً منهم ، وسرياً من سراتهم » .

وكان الغضب قد بلغ منه عند ذلك مبلغ التوقد ، فاحمر وجهه الجليل وتقبض ، ولملت عيناه لمعاناً وحشياً ، وتصلبت أعضاؤه وهو يشير بيديه مهدداً . وسرب عدوى غضبه إلى الحاضرين ، فلاحت على وجوههم علامت الثورة ، واكنست جباههم ظلال السماء ونظروا إليه وقد ملاهم العجب أن يكون هذا التأثير المتوثب عدى

ابن ربيعة (المهلهل) ، صاحب الخمر ، المفتون بالنساء ، الذى لا يعرف إلا التغنى والتفزل فى قصيد الشعر .

ولم يشمر القوم وهم فى هذه الثورة بقدم جماعة أقبلت عند ذلك ووقفت عند طرف الجمع لتسمع آخر مقالة المهلهل ، وتشهد الغضبة الشاملة التى عمت نادى تغلب فى تلك الليلة .

ولما حدث حدة الثورة تقدم الوافدون نحو مهلهل ومدوا إليه أيديهم بالتحية ، وقال كل منهم له كلمة تمرية ، ثم ذهبوا نحو أبى نيرة فرحب بهم وفسح لهم المجالس فى صدر المكان ، وعاد الهدوء بعد قليل إلا همسات بين الجالسين يُعَرَّف بعضهم بعضا بهؤلاء الوافدين .

وبعد قليل وقف أبو نيرة فأشار بيده إلى الجمع أنه يريد الكلام ، ثم قال كلمة رحب فيها بالمقبلين ، وشكر لهم سعيهم بالعزاء . ولما انتهى من ذلك صمت لحظة ثم نظر إلى قومه وأشار إلى كهل من الضيوف وقال : « بطل بنى بكر الحُرث بن عُباد » .

فتطلعت الأنظار إلى الرجل الذى أشار إليه أبو نيرة ، وكان رجلا طويلا قد وخط الشيب لحيته ، ولكن قامته المعتدلة ، وبناء جسمه المتين ، واتزان حركاته وهدوءها كانت تنم عن أنه زعيم اعتاد أن يقود وأن ينامر ، وأن يأمر وأن يطاع . وبعد لحظة من

السكون قال أبو نيرة يخاطب ابن عباد : « إذا شئت يا أبا ضبعة »
 فوقف الحارث متكئاً على رمح ، وتكلم وفي صوته رنة من
 الحزن فقال : « يا أبناء العم من تغلب ! لقد علمت ما كان مما
 لا حيلة فيه . وكان فقد كليب مصاباً جليلاً ، عمنا معاشر بني
 بكر كما عمكم ، وأصاب أفتدتنا كما أصاب أفتدتك . وكنا نرجو
 أن ينصف إخواننا بنو شبان من أنفسهم ، فيحققوا الدماء
 ويحمدوا يران حرب يصيب فيها الرجل أخاه ، وتقطع فيها عین
 المرء يسراء . ولكن بنى شبان لم ينصفوا ولم يعدلوا ، ولجؤوا
 في العناد وأصروا على البنى ، فلا حاجة بنا إلى نصرتهم ولا رغبة
 فينا إلى مؤازرتهم ، فنحن بعد اليوم بمجزل ، وإن كنا لا نملك
 أن نحاربهم معكم ، فلسنا بناصريهم عليكم ؛ ولهذا عولت على أن
 أكرس سهامى وأززع الوتر عن قوسى ، وأسير بأهلى ومن أطاعنى
 لأبعد عن هذه الفتنة ، ولعل إخواننا يجدون بعد النى هدى » .
 ولما انتهى من مقالته قعد إلى جوار أبى نيرة بين مهمة
 خافتة ثم عن ارتياح وشكران .

وتعاقب بعد ذلك الخطباء من الوافدين ، بعضهم من قبائل
 بكر الأخرى : بنى عجل وحنيفة ويشكر ، تعلن الانقضاض عن
 إخوانهم بنى شبان أو الانتصار لتغلب ومؤازرتها ، وبعضهم من
 فروع النمر بن قاسط ، جد بكر وتغلب الأعلى ، وقد جاءوا لنصرة
 بنى أبيهم التغلبيين على بنى أبيهم البكرين الذين تمادوا فى البنى والظلم .

وهكذا صارت قبائل ربيعة كلها يدا واحدة تطالب بدم بطلها .
وأصبحت شيان في عزلة ، تستعد للمقاومة وحدها ، والدفاع عن
جريعة ولدها الثائر الباغي جساس بن مُرّة .

ولما هم المجتمعون بالانصراف بعد ذلك وقف عدى بن ربيعة
(المهلهل) في سكون ، وأشار بيده إليهم قائلاً :
— علي، رسلكم يا بني أبي !

فوقف القوم ينظرون إليه ، وكانوا عند ذلك أكثر إقبالا ،
وألسلس أسباعاً . فقال :

« لقد علمت ما كنت عليه من ضلال وعي ، وانصراف إلى
اللهو والمجون . لا أنكر ذلك ، ولا حاجة بي إلى نكرانه .
ولست أدافع عن نفسي ولا أبرئها ، فقد كنت سادراً في ظل
كليب ، كفاني بشجاعته مؤونة الجد ، وصرفني جاهه إلى النعيم ،
ولكن قتله سلبني حمايته ، وأفقدني جاهه ، وعلى أن أقطع سائر
أيامي في قضاء دينه والوفاء له . وقد آليت منذ اليوم على نفسي ،
وعقدت بينكم موثقاً ، أن ألحمر على حرام لا أذوقها ، والنساء على
حامي لا أقربه ، وأن الطيب لن يمس جلدي ، والماء لا يبيل جسدي ،
حتى أثار لكليب ثاراً تطيب له نفوسكم » . ثم تردد
قليلاً وقال بعد صمت قصير : « وتطيب نفسي » .

ثم سار مطرقاً ، وسار القوم في إثره واجبين ، وقد تمثلت على
وجوههم غزيمة الجد ، وطلب الثأر .

كانت حراً عنيفة ليس فيها نقياء ولا هواة . كانت تغلب
تتعقب شبان أينما تحل ، لا تترك لها مُتَنَفِّساً من الراحة ؛ فإذا
انتهت من وقعة وانحازت شبان إلى منزل بعيد لتداوى جراحها
وتصلح سلاحها وتحم خيولها ، فاجأها بنو عمها قبل أن تطمئن
في مُقامها الحديد ، فيوقعون فيها وقعة جديدة أشد عليها وأنكأ
لجراحها . وكان المهلهل لا يفتأ يذكر أخاه في ليله ونهاره ويكيه
في شعره ، فلا تكاد قومه يعودون من القتال حتى يذصرهم ويحرضهم
فيثبون معه إلى حيث يعضى بهم ، وقد أسلموه قيادهم واتبعوه ،
لا يجادلونه في رأى ، ولا يعصوه في أمر ؛ فقد وجدوا فيه قائدهم
الذى يسبقهم إلى الصدر ، ويفرق لهم صفوف العدو ؛ يضرب
حائقاً ، ويندفع في غمار الجموع يقتل فيها ويمزقها . واشتعلت مع
تمادى الحروب أحقادهم ، وامتلاّت بالجرأة قلوبهم ؛ وألفوا النضال
كأنهم يجدون كل المتعة في مناظر دماثة ، وضجيج هيجائه .

وترحزت شبان عن منازل اليمامة حتى بلغت أطراف القفر
المجذب ، تلتبس فيه النجاة من العدو الملح ؛ وكانت ترجو أن
ينخسع المهلهل عنها ، إذ نال منها ما نال في وقعاته العنيفة ، وحسبت

أنه يستوحش من تلك الفلوات ، فلجأت إليها على ما تتجشم فيها من قسوة الحياة .

ولكنها لم تلبث أن سمعت أن عدوها لا يزال يحف إليها ، ويخترق في سبيله القدافد الوعرة التي ظنوها تحميهم وراءها .

وكان يوماً شديداً الحر من أيام الصيف عند ما سمع مرة شيخ بني شبان بأنه المهمل قادم في غزوة جديدة مغيراً بقومه تغلب وحلفائه من قبائل بكر والنمر بن قاسط ، الذين تألبوا عليهم واجتمعوا على مطالبتهم بثأر كليب . وكان بنو شبان عند ذلك نازلين بآخر منزل حلوا فيه بعد هراثمهم المتكررة ؛ فقد ضربوا خيامهم عند عين واردات في أطراف اليمامة ، بمد أن هجروا رياض نجد ووديانها الحصيبة منذ غلبهم عليها بنو عمهم في الوقائع الماضية : وقائع النهي وعينزة والذئائب ، وقنعوا في وادي واردات بأقل المراعى كلاً ، وأشح العيون ماء ، وأشد البلاد حرّاً وإقفاراً ، ولكنهم كانوا لا يزالون يأبون النزول على حكم عدوم ، وإن كان عدوم قد صار إلى القلة ، واضمحل أمرهم وضاعت أموالهم في حروب تلك السنين الطويلة .

وقع بئاً الفارة الجديدة على الشيخ مرة وقع الصاعقة ، لأنه كان يعرف قلة عدد فرسان قومه وكثرة المتألبين عليهم من شبان القبائل الأخرى ؛ وزاد في شدة الأمر عليه أن سنوات الحرب

كانت سنوات جذب ذهبت بأكثر الأموال ، وأن السماء لم تجد
في الشتاء المنصرم بما يحبي المرامي ويسمن اليهم ويدنو الألبان ؛
وجعل يقلب وجوه الراى فيما هو صانع في تلك الغارة ؛ أيقف مرة
أخرى لعدوه القوى ، أم يستعد للزوح إلى فيافي الدهناء المخيفة ؟
وفما هو في ذلك الهم الشاغل أقبل عليه ولده جساس مسرعاً ،
فرفع بصره إليه صامتاً وهو يصبث لمحيته البيضاء بأصابعه النحيلة
في شيء من الاضطراب ؛ فوقف جساس لحظة ينظر نحوه وقد
امتلاً قلبه شفقة على ذلك الشيخ التهدم ، الذى ما زال يحمل
هموم قومه تلك السنين الطويلة المليئة بالهزائم والمحن ؛ ولم يستطع
أن يبعد عن فكره أنه السبب الأول في إثارة تلك الفتن وإنزال
تلك الكوارث بقومه ؛ ثم اقترب من الشيخ وجلس القرفصاء
إلى جواره ، وقال بصوت خافت فيه رنة الرحمة : « أبى ! » .

فلم يُرد الشيخ أن يظهر شيئاً مما كان في نفسه من الهم ،
فأسرع بجيباً في هدوء : « لعلك قد علمت ببأ تحرك القوم نحونا
يا جساس » .

فقال جساس بصوت متردد : « هذا ما جئت أحدثك فيه » .

ومضت لحظة قصيرة عليهما في صمت ، ثم قال جساس :

« لقد رأيت يا أبى ما جلبت على قومي من المصائب ، وقد

بدا لي اليوم عظم جرمي عليكم وشناعة مضررتي لكم ؛ كنت

شاباً نزقاً لم أعرف مغبةً عملي وعاقبة تهوؤرى ، حتى مرت بنا هذه الأحداث وتطاوالت علينا مدة الحرب هذه السنين ؛ فعلت الحق بعد أن تفلّست الأمر من الأيدي ، ورأيت أنى كنت ، كما وصفتنى يوم قتل كليب ، جايئاً مستثوماً منكوداً ؛ علمت أنى لم أحرز لقومى عِرةً بقتل كليب ، بل أذهبت عنهم عزتهم ، وفرت كلمتهم وأفسدت فيهم الشكل والويل .

فلم يجب الشيخ على قوله بكلمة ، بل طل مطرقاً وهو يعبث بلحينه ؛ وساد الصمت حيناً آخر ثم استمر جساس قائلاً : « وقد عرمت يا أنى على أن أحمل جريرتى دونكم ، وأبذل نفسى فى فدائكم لعلى أقع غلة ذلك الصديان الذى لا يرتوى من كل ما أراق من دمائنا » .

فرمى الشيخ رأسه مسرعاً وقد نغته ذلك الرأى الجديد وقال مندفعاً : « ماذا تقول يا جساس ؟ » .

فاستمر جساس يتكلم فى هدوء : « عرمت على أن أذهب إلى المهلهل وأسلم نفسى إليه ، لعله يقنع بى دونكم » .

فقال الشيخ وفى صوته غضبة ثائرة : « أبعد إذ كان ما كان ؟ أبعد أن قتل من ولدى وقومى من قتل فى سبيل الحفاظ والكرامة تسلم نفسك إليه ، وتلحق بآ المرة التى كرهناها ، وتنزل بنا الصغار الذى أئيناه ؟ وما لذة الحياة بعد من ذهبوا ؟ وهل يحل

بنا بعد اليوم إلا مثل ما حل بقومنا بالأمس ؟ لقد أيننا أن نسلّمك لهم وننحن أعزّه ، فلن نسلّمك لهم ولم تبق لنا عرة نحرص عليها . لس ينتنا وبين المهلهل إلا الفناء » .

وكانت العريّة الصارمة الی فی صوته لا تدع مجالاً للمراجعة ، يحظر حساس إلى وجهه المجدد لحظة ، وحقق قلبه حرناً لما رأى عليه من أثر الهم الذي يضمّره في قلبه ولا يوحّ به ؛ وأحس أنه لا يرال الابن الصغير الضعيف أمام ذلك الأب القوى في ضعفه ، الفتى في شيخوخته ، ولم يستطع إلا أن يفض عينه حتى لا تقع في عين أبيه الصارم . وأطرق إلى جواره صامناً .

ومضت لحظة أخرى في صمت ، ثم استأنف جساس القول ، وكان في هذه المرة أكثر تردّداً واضطراباً . قال : « إذا كنت يا أبي قد عزمت على المضي في هذه الحرب فلا أرى لك أن تبقى هاهنا » .

فقال الشيخ في هدوء وقد نظر إليه حائراً : « وإلى أين يذهب إذا لم نحم هاهنا ؟ لقد اضطربنا إلى هذا المقام اضطراباً ، ولم يبق لنا بعد هذا الوطن إلا الفياق القاطمة . ولن يكون لنا فيها إلا العذاب ثم الهلاك . وإذا كان ولا بد من الموت فليكن على ظهور الخيل والسيوف في أيدينا » .

فقال جساس وقد زاد اضطراباً وتردّداً : « لقد بدا لي رأى

إن أحببت أن تسمعه .

فقال الشيخ ولا يزال فأتراً : « قل ما بدا لك يا ولدى . »
قال جساس بصوت خافت : « نحمل نساءنا وأطفالنا ونسلك
في وديان اليمامة حتى يبلغ منازل تغلب من وراء ظهورهم . فنتقوى بما
عندهم من أموال ، وإذا رجعوا إلينا بعد حين ليحرموا حرمهم ،
قابلهناهم وقد استرحنا وهم في جهد السفر الطويل . »

فحرك الشيخ في حركة ضجر في مجلسه وقال في لهجة
قاسية : « يذهب إلى منازل تغلب ؟ وماذا نجد هناك سوى النساء
والصبية ، أو كل ضعيف من الشيوخ والمرضى ؟ أو تريد إذن
أن تميد علينا معرة فوق معرة ؟ ألا تذكر يوم قتل (ابن غنم)
المرأة التغلبية ؟ ماذا جر علينا قتل المرأة غير العار الذي لا يزال
لاحقاً بابن غنم وأهله وقومه ؟ دع عنك هذا ، فإنك إنما تنصر
عدوك بمثل هذا النى . إننا لو فعلنا ذلك الذى تشير به لما زاد
علينا العرب إلا حفيظة ، وحسنا ما جلبنا على أنفسنا من عداوة
العرب . »

ولم يطل الحديث بعد ذلك بين الأب وابنه ، فقد أقبل كهمام
ابن مرة مسرعاً على فرسه وهو يلوح بشمלתه فى الهواء ، وفى
مظهره ما ينم عن الفزع من أمر خطير . فأمرع الشيخ ليقف
على قدميه وهو يترنح من ضعف الشيخوخة ، وساعده جساس

حتى وقف ، وسار بخطى متمترة نحو والده المقبل ، ينظر نحوه في لهفة ، وجساس إلى جواره يُسندُه من تحت إبطه .
حتى إذا ما اقترب منه همام صاح به في لهفة : « هل من جديد ؟ » .

فقال همام مسرعاً :

— القوم وراء هذه الكثبان .

وأشار إلى الربي الصفراء التي عند الأفق . ثم قال وهو يهمز فرسه :

— هلمّ يا جساس . إملأ لنفسك قربة ماء والحق بي .
فإني ذاهب لأنذر الناس .

ولم ينتظر همام جواباً ، بل لف لثامه فوق أنفه وحمه ، ليتقى به الهواء اللافح والحر المتقد ، ثم وثب فرسه نحو منازل قومه .
فصاح الشيخ وهو ينظر في أثره : « وللى ! » .

وسكت كأنه قد غصّ . بريقه ، ووقف ينظر نحو التلال البعيدة كأنه في حلم .

ووثب جساس إلى فرسه ، فما هي إلا لحظة حتى كان في أثر أخيه . وغيبهما الغبار الثائر عن عيني الشيخ .

بعد ساعة كان فرسان بني شيبان يسرون نحو الكثبان ليلاؤوا العدو المفير ، وسيوفهم تبرق في أيديهم ، وأسنة رماحهم

تلع في ضوء الشمس الساطعة كأنها شرر منبعث من لبيب ،
والرياح الحارة تثير الرمال ، وتلفح الوجوه ، وتكاد تخنق الأنفاس .
ونظر مُرّة إليهم وهم سائرون ، فرآهم صفوفاً ضئيلة فوق خيول
ضامرة ، سرعوا إلى القتال وهم يعلمون أن العدو قد أقبل نحوهم
في عدده وعدته ، يريد أن يسناصل بقيتهم بعد أن أفنى منهم
الآلوف في وقعة بعد وقعة . واسودّت الدنيا في عيني الشيخ عندما
تذكر أنه لم يبق له من قومه إلا هذه الحفصة القليلة ، ولم يبق
بيت من بيوت شيان إلا وقد لُجّع في زهرة شبابه وصفوة فرسانه ،
فرفع يده إلى عينه ومسح دمعة ترقرت فيها ، وقال كأنه يحدث
نفسه : « ألا ما أفلها من بقية ! لقد عشت حتى أرى ! فيا ليني ... »
ثم توقف عن إتمام قوله كأنه لم يشأ أن يدع نفسه تتهادى في
هذه الخواطر اليائسة ، مثل تلك الساعة الخطيرة . وهر نفسه
ووقف ينظر بلهفة إلى الفضاء الفسيح حيث يترجح ميزان القضاء .
سارت الكتيبة الصغيرة حتى صارت في منبسط الأرض ؛
فوقفت تنظم صفوفها ، وترتب خطتها . فاختارهمام جماعة من
الفرسان ليكونوا معه طليعة ، واختار جساس جماعة أخرى
ليكونوا لهم رداءً ، وأرسلت طائفة ثالثة مع عمرو بن السدوس
إلى ثنية وادي واردات لتكن للعدو ، وتخرج عليه إذا وجدت
الفرصة سانحة .

واتفق قادة شبان على أن يتقدم همام إلى العدو فيحاربه ويبارر أطلاله ؛ حتى إذا التحم الجيشان واستحضر القتال تظاهر همام بالهريرة ، فيقف جساس بمن معه في وجه العدو المتقدم ، حتى يتمكن همام ومن معه من العودة إلى المنسبط الفسيح الذي وراء الكتبان ، ليستريحوا ويشربوا من قَرَب ماء يصمونها عند سفوح الكتبان ، ثم يتظاهر جساس بالإنهزام متياسراً ، ويتقهقر بجماعته إلى ناحية الكمين ؛ فإذا ما أوغل العدو وراءهم في السهل وقصد إلى نحو منارل شبان لسبي من فيها من نساء وأطفال ، وغنم ما بها من مال وأثاث ، خرج عليه كمين ابن السدوس فجاء وعاد همام وجساس يكرّان عليه بجماعتهما ؛ فبأحدونه وهو آمن مشنت ، مشغل بجمع الأسلاب ، ويوقمون به هريجة محققة يستردون بها شرفهم ، ويتقمون لما سبق من مصابهم .

ولما تم تدبير هذه الخطة تقدم همام وقد حمل قربة من الماء جعلها على عاتق فرسه ، وقال لأصحابه : « لا يس أحدكم أن أمامه اليوم قتال مجهد في صحراء جرداء ، فليحمل كل منكم قربه ، فإذا صرنا عند الكتبان جعلها في موضع يرفه ، فإذا أحدهم القتال قصدها فارتوى ثم عاد إلى قتاله نشيطاً ، فالיום لا يموت إلا المطاش » .

ثم ركب فرسه وسار نحو الكتبان ، وأصحابه وراءه يُسوون

سلاحهم ودروعهم ، وقد امتلأت قلوبهم عريّة وأنفة . وكات
تقلب لا تزال وراء الكُثبان تنتظر أمر المهلهل بالسير ، وهى
تملأ الفصاء خيلاً ورجالا . وكانوا لا يظنون أن بنى شيبان يجرؤون
على السير إليهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم صاروا فى قلة من العدد ،
وجهد من طول الحرب ، يقيمون فى أرض قاحلة ، ويقاسون
مرارة العيش فى وادٍ قفر ، وكان المهلهل يرى أن تلك الغارة لا محالة
تأتى عليهم ، وتقضى على من بقى منهم . ولهذا لم يتعجل فى زحفه
بل كان يؤثر المُقام فى مكانه حتى يَفْتُر الحر ، وتميل الشمس ،
فيستطو عليهم سطوة لا يلبثون معها أن يتفرقوا ، فيقتل فيهم ما شاء
حتى إذا أقبل الليل كان قد طواهم فى هزيمة قاضية .

كان المهلهل لا يزال فى حيمته يستظل حتى تميل الشمس عن
كبد السماء . فإذا بكتيبة شيبان تطلع من وراء الكُثبان وتهبط
على فرسانه كما تحمل الماصفة فجأة ، فاضطرب الجمع المحتشد ، وتواثبوا
إلى خيولهم وتصايحوا ؛ يدعو مصهم مصاً ، وينادى قريبهم
البعيد . فوجد همام فى ذلك الاضطراب فرصة فانتهرها ، وأهوى
بجماعته القليلة على من لقيه من أدنى القوم ، فقتل فيهم مقتلة
عظيمة ، حتى هم سرعان بنى تقلاب بالانهزام ، ودفع النهرم أخاه
من ورائه ، وكادت المفاجأة تنتهى فى تقلاب إلى نكبة كارثة .

وعند ذلك أقبل المهلهل من أقصى الميدان في سلاح تام ودرع ضافية ، واندفع إلى عدوه كأنه سهم اطلق من قوسه ، لا يتردد ولا يميل ، وهو يضرب بالسيف تارة ويطعن بالرمح أخرى ، فلا يصمد إلى فارس حتى يحدّله ، ولا يجالد طلالا حتى يصصره ؛ كأن صخرة تهوى حيث هوى ، وهو كلما ضرب فارساً صاح بصوت يُدوّى : « واكليباه ! » . فعرفت شيبان الصبغة وعرفت أنه مهلهل بن ربيعة ، الذي آلى على نفسه ألا يرال دهره على أهته ، لا يزع حوشه ولا يصع درعه ولا ييصنه .

ووجد بنو ثعلب عند ذلك متنفساً من الوقت للاستعداد ، فركبوا خيولهم سراعاً واجتمعوا من أطراف الفضاء خفافا ، وعاد الذي كاد ينهرم ، واطمأن الذي كاد ينخلع ، وأحاطوا بكتيبة هام حتى كاد لا تجد ثلعة للفراو .

ولكن بنى شيبان ، وإن كانوا قلائل في العدد ، كانوا من فرسان اعتادوا مقارعة الأبطال ، وطالت بهم مازلة الشجعان ، فما زالوا يتلقون الضربات بالدروع ، ويتواثبون فوق حيولهم كالسّمالي من الجن ، حتى استطاعوا أن يخرجوا من حلقة العدو ، وقد أوشكت أن تلتهم حولهم ، وأسرعوا فوق الكتبان منهزمين نحو الفضاء الفسيح الذي دونها . ولحقت بهم خيول ثعلب غير مترددة ، وتدقت وراءهم كأنها السيل ينحدر إلى بطن

الوادي . ولكن المهلهل بقى حيث كان ، فإكان مثله ليتبع منهرماً
 فهو للقاء العدو المقبل ، وليس لاقتفاء المنهرم المدبر .
 كان حساس عند ذلك راضاً بمن معه وراء الكشبان ، فلم
 رأى خيول تغلب تتدفق فوق الكشبان ، أسرع إليهم فوقف في
 سبيلهم ، فمطف المغيرون عليه وتركوا همماً ومن معه يصوّد
 في سبيلهم .

وقا تلّ جساس في جماعته قتال المستميت ، وكان الفضاء
 الرحب أرفق بهم ، وأطلق لحركاتهم ، فكانوا يفرون ثم يكرزون
 ويحاورون عدوهم ثم يعودون إليه ، حتى حيل إلى بنى تغلب أنهم
 يلاقون حشاً خبساً وعدداً عديداً ، وزاد هيبة الفئة القليلة و
 قلوبهم فترددوا في لقاءها ، وتحاموا بطشها وقتالها . وعلا صجيرة
 القتال وتجاوب الفضاء بأصوات الحديد ، فسمعها المهلهل وهو و
 مكانه يستريح مما ناله من جهد القتال الأول ، فأسرع مبادراً فاعتل
 الكتيّب وأشرف على الفضاء ، فرأى كتيبة جساس تطلعن قوه
 في قتالها العنيف ، فأنحدر نحوها يصيح صيحته . فما سمعت تغلب
 الضجة حتى اشتدت عزائمها فحملت حملة شديدة . ورأى جسان
 أنه لن يستطيع الثبات أمام ذلك التيار الآتي ، فانهزم بجماعه
 متياسراً نحو جانب وادي (واردات) ، وتبعهم مهلهل يصيح
 « واكليباه ! » .

سمع حساس الصيحة فعرف أن ذلك الفارس هو مهلهل الخفيف وعلى اللم في رأسه عندما تذكر من قتل من إخوانه ومن قومه ، وكان العطش قد أجهد وطول القتال قد أجهد ، ولكن الفيظ غلب عليه ، فأشار إلى فارسين قريبين منه أن ينحازا بمحاربتهم إلى جانب الوادي ، وعاد هو نحو عدوه مُحَنَقًا ، يطلب القتال الذي لا هوادة فيه .

وقف حساس وجهًا لوجه أمام عدوه الفاتك وناداه أن يُقبل عليه للنزال . فأقبل مهلهل نحوه كأنه يقذف بنفسه قذفًا ، ووقف فرسان تغلب على مسافة منهما ليروا ما تنتهي إليه ساررة القرنيين . قال حساس صائحًا صيحة وحشية : « إلى يا مهلهل ! أنا قاتل كليب ! أنا حساس بن مره إن أردت ثأرك » .

وما سمع المهلهل اسم حساس حتى اندفع نحوه محنقًا وعص بريقه من شدة الغضب ، فلم يجب إلا بصرية كادت تشق البيضة عن رأس حساس وتنفذ إلى دماغه .

فترجع حساس لشدة الضربة ، ولكن البيضة دفعها عنه ، ثم تمالك نفسه بعد قليل وأهوى سيفه نحو رأس حصمه فضربه ضربة أودع فيها ما في قلبه من حقد وغضب ، فتحول المهلهل عنها سريعًا ، فوقعت الضربة على عنق الفرس فقدته ، ووقع الفرس كأنه جليود صخر .

ووثب المهلهل إلى الأرض حتى لا يقع تحت الفرس القتيل ،
ورمى سيفه عند ذلك وقبض على رمح الطويل وهره في يده حتى
ارتاح إلى قبضته ، ثم سدده إلى قلب جساس وأسرع فقذفه به .
وأدهشت هذه الحركة جساساً فلم يستطع أن يأخذ رمحاً في
يده ، ولم يقدر على أن يبلغ المهلهل بسيفه وهو بعيد عنه ، فلما
رآه مسرعاً نحوه بالرمح البارق تحول عن فرسه إلى الأرض كالنمر
الأرقط ، فلم تصب الصربة إلا حاب درعه ، ولكنها كانت صربة
عاضب مخنق مرزلة ، وكادت تلقية صريعاً .

في تلك اللحظة سمعت صيحة عالية من وراء مهلهل ، فالتفت
فرسان تغلب إلى جهتها ، فإذا كبير ابن السدوس يهوى نحوهم
من حاب الوادى يريد أخذهم من وراء ، وكان مهلهل على وشك
أن ينبع ضربته بأحرى يقصى بها على حصمه ، فلما رأى الكمين
مقرباً نحوه أسرع إلى فرس قتل فارسها ، فوثب عليها واتحى
مسرعاً نحو العدو المقبل ، وهو يقول في عيظ : « لطف نفسى على
فوت جساس ! » .

وما هو إلا قليل حتى اصطدمت الكتيبة المقبلة بمهلهل ومن
معه ، وقد أقبلت بعد راحة من القتال ، فكانت على قلة عددها
ثقيلة الوطأة ، شديدة الضربة .

وعادت في الوقت عينه جماعة همام بعد أن رويت واستراحت

وعادت معها كتيبة جساس بعد أن تنفس .

والتحم عامة جيش شبان عامة جيش تغلب ، وعلا القتام
وعم الاضطراب ، واختلط الجمعان وفشا في الحابيين القتل ، وتعالى
فيهما الصجيج ، وتردد النصر بينهما ، فتارة تنحاز تغلب إلى
الكثبان ، وتارة تنحاز شبان إلى حاب الوادى . وتفرق
المقاتلون ، فنهزم يتعمه حصمه ، وراكص يلجأ إلى قومه ،
ومنعب يلتمس صخرة يستريح عندها ، وطامئ يطل شربة يرتوى
بها ؛ ومالت الشمس إلى الغروب وميران القتال لا يزال مترججاً
تارة يميل مع شبان وأخرى يميل إلى تغلب . وفى أثناء ذلك المهرج
الشامل على صيحة من جاب الكثيب حملتها الرياح الثائرة مع
رمالها ، وكان يمتدح فيها ريب الفرح الوحشى بجلجلة اضطراب
ومرع : « قُتل همام بن مره ! قتل سيد شبان ! » .

وسمع المقاتلون تلك الصيحة وهم لا يعرفون من أين أقبلت .
فوقعوا في مواضعهم حيناً يتلفتون في دهشة . فهل هى نمص حدع
الحروب ، يقذف بها أحد المتحاربين يقصد من ورائها قصداً ؟
أم هو فارس من فرسان تغلب أصاب قريناً من فرسان شبان
يحسبه سيد القوم فصاح تلك الصيحة وهو واهم قد اشتبه
الأمر عليه ؟ أو هو رجل مدع من بنى تغلب يريد أن يباهى لحظة
بأنه قد هدد شبان بمقتل سيدها لكي نحدث الناس باسمه حيناً

فيرضى غموره حتى يظهر الحق بعد لآئى ، فيكون قد أصاب من جلال البطولة نصيبا مخلوسا ؟ أم قد فترت ثقل عن القتال وأعيائها ثبات شيان فصاح رُحالها تلك الصيحة لكي يتستر وراءها المهلهل ويأمر رجاله أن يكفوا عن القتال ، مكتفين من ذلك اليوم بما نالهم من جراح دامية في النضال العنيف ؟ ترددت كل هذه الخواطر في قلوب مختلفة من شيان وهم وقوف ينلفتون لملهم يرون بطلهم بينهم فيعرفوه بدرعه المعلقة وفرسه الكمين النبيل . وأصاخوا بالأسماع لملهم يسمعون صوتا يرتفع بتكذيب الصبحة الخبيثة فيطمئنوا على فارسهم الباسل ، ويمودوا الى مصادمة عدوهم فيزيلوه عن منازلهم بعد أن يوجموه ضربا وقتلا . ولكنهم لم يسمعوا شيئا ، بل سمعوا الصيحة الأولى تردد في قسوة كأنها من صوت القضاء .

وأقبل معصم على بعض يساءلون : من يكون ذلك الصائح وهل هو ممن يعرفون من فرسان ثقل ؟ وعند ذلك ترددت الصيحة . وكانت في هذه المرة صرخة رددتها صفوف المدو في فرح : « قتل سيد شيان ! » .

فلم تلبث صفوفهم أن تفرقت ، ولم يلبث أبطالهم أن تصمضت عزائمهم . وتردد الفرسان لحظة ، ثم جرفهم الخوف الشامل ، وغلبهم الفرع المفاجئ ، فركضوا خيولهم يطلبون مضارب الخيام

لعلهم يقدرّون على حماية الحُرْم ، فيستطيعوا النجاة بها من العدو المنتصر .

ونظرتْ تغلب إلى مهلهل ينتظرون ما يقول بعد سماع ذلك السأ الخطير ، فقد أجهدهم القتال ، وما كان مقتل مثل همام بالنصر اليسير . فهل يسير بهم المهلهل بعد هذا النأ حتى يحجر على بني شيبان وهم في دهشتهم واضطرابهم ؟ أم يأمرهم بإيقاف الحرب والاكتفاء من ذلك اليوم بقتل همام ؟

وقف المهلهل صامتا لحظة بعد أن سمع الصيحة ، وكان لا يزال في سلاحه ودروعه كقطعة من الحديد ، ورآه الفرسان يركرر رموه في الركاب ويسد عليه رأسه ويتنفس نفسا عميقا ، ثم رأوه يرفع رأسه ويشير إليهم ويقول بصوت خافت : « ليهنكم النصر أيها الفرسان ، وحسبكم اليوم ما كان ! » .

في تلك الليلة كان مهلهل يحول في أنحاء الوادي يسير في أثر ذلك الفتى الضئيل الذي قتل هماما ، حتى إذا بلغ الفنى الحلاب الأدنى من الكشنان ، وقف وأشار إلى جسم ممدد على الأرض مائل إلى جنبه وقد احتلطت حوله الرمال بالدماء ، يمد يده نحو قرية ماء في حفرة بين الرمال إلى جواره .

وقال الفتى في لهجة المباحاة مشيراً إلى ثنية وراء الكتيب :
« هناك انتظرتُه حتى اشتدَّ به العطش ، فأنى ليرتوى من

قرته الى جعلها من جاب من الرمال . فلما جلس ليسترخ ويشرب تغفلته وطعمته ، وكانت طعنة قاضية » .

فنظر مهلهل نظرة ساهمة إلى الجنة الممدودة وإلى وجهها المعفر وغاب حيناً في صمت وتفكير ، ثم احتلجت شفتاه قليلاً ، ونظر إلى الفتى وقال :

— ألا تعرف فصل همام عليك يا ناشره ؟

فقال الفتى :

— سم . لقد أخبرتنى أمي .

وكان ناشرة طفلاً من تغلب ولدت له امرأة فقيرة أراد أن تشه بعد ولادته حوماً من الفقر ، خشية ألا تجد طعاماً يكفيها مع ولدها فأحسن همام إليها وأعطاهما ناقة ولوداً تطعم من لبنها ، وضم الطفل إليه ليعبش مع أهله . حتى شب ناشره وعرف أنه تغلبى وذهب إلى قومه تغلب ليحارب معهم في واقعة واردات .

وبعد صمت قصير أردف الفتى قائلاً :

— لم أعرف في شيباننا بكرم منه لأحتله في نار كليب .

فحول المهلهل نظره عن الفتى ، ثم نظر إلى القتيل الطريح كأنه يريد أن يملأ منه عييه ، ثم قال والدموع تجري من مآقيه : « أي همام ! يارب ليلة جمعتنا على المودة ، يارب حديث تبادلناه على الصفاء . إن الثأر حبيب إلى قتلك ، فأت كف .

كريم ، ولكن قلبي ينازعني إليك يا صديق الشاب . وإن كسدي
لحرى عليك يا حليل الصبا . ما قتل بعدك كليب أعر على منك ،
وما بقي بعدكما في الحيين من يُعقد عليه الخير .

ثم التفت إلى الشاب وقال في وحوم :

— اذهب يا ناشره وعيب وجهك عني .

ومضى نحو معسكر الحش ، وترك الشاب يمتدوها حائر
المؤاد .

في تلك الليلة نفسها كان مهمل سير في طليعة قومه عائدين
إلى أروصهم ؛ فقد هره قتل همام فلم يدع له رعة في معاودة القتال .

مصن السواب تتوالى ، والحرب لا تزال دائره بين بنى العم
المتناضلين إلى الفناء . وشب الصغير في أثنائها وفي الكبير ، وبيع
من الفرسان جيل في إثر حيل ، ولكن المهلهل لم تهدأ نائوته ولم
يرتو بعد عما أسال من الدماء .

وتوالى المصائب على بنى شيان بعد وقعة واداب ، كما
توالى عليها قبل تلك الوقعة ؛ قتل همام بن مرة في أثناء المعركة ،
ثم قتل عمرو بن السدوس وقت الهزيمة ؛ ولم يلبث سو شيان إلا
قليلا بعد ذلك حتى رُوِّعوا بمقتل رئيسهم الحديد والبقية الناقية
من قادتهم وأبطالهم ، وآخر أبناء مرة ، حساس فاتل كليب . قتل
حساس ولكن لم يقتل في ميدان حرب ، ولم تطعنه يد عربية
ترصدت له ، بل أحاطت بمقتله روعة حلت عليه لونا قائما من
العداحة ؛ فما كان قاتله سوى ابن أخته جلييلة ، الهجرس بن
كليب التغلبي .

كان الهجرس جنيئا عند مقتل أبيه ، ثم ولدته أمه وهي بن
طهراني قومها بنى شيان ، وشبَّ فيهم ونما ، حتى أصبح فتى
الفتيان وزين الشباب : فتى طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل

الوجه ، ولكنه كان مثل أبيه تخالط جماله قسوة من عبسة بين عيين تلعان لمان وير يد السيف . وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم عذب قوله في السمع ، ووقع في النفس ، عظيم المروءة ، يسرع إلى النجدة ، ولا يبالي المخاطر . فأتخذه حده مرة أيسا ، يفيض من بهجة شبابه على شيخوخته التي تناولت به ، ويرقه بمظهره عن الآلام التي توالى عليه ، مع تناول السنين ، وجعله خاله جساس في أهله ولدا ، وزوجه ابنته الجميلة سعاد ، وكأنه أراد بذلك أن يكفر عن ماضي جريمته في قتل أبيه . وكانوا يسمونه ابن حساس حتى لا تدخل الأحقاد إلى قلبه ، إذا عرف أنه ابن كليب .

ولكن مكان الحجرس في شبان غشينه عشاوة من المهوم ، منذ قتل همام بن مره ؛ ذلك بأن ناشرة قاتل همام كان فتى تغلبيا ، أحسن همام إليه وعطف عليه ، بل حفظ حياته وليداً ، ورعاه طفلاً وفتى ، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال لم يذكر إلا أنه من تغلب أعداء شبان ، فقتل الرجل الذي أحسن إليه ، وعذب بمن كان حقه أكبر من حق الأبوة عليه .

فأخذ جماعة من الشبان يُذيمون المطاعن على الحجرس ، ويحرضون على إخراجه من بينهم حتى لا يصيبهم بمثل ما أصابهم به ناشرة . وسمع الحجرس ما يقولون فيه ، فداخلته الوسواس والشكوك ، واشتعلت فيه الكبرياء والأنفة ، وضاق صدره بالإقامة

في قوم يقول قائلهم عنه : إنه لس منهم . فما زال بأمه جليلة حتى أخبرته بقصة أبيه ، بعد أن هدها بأن يسير في الأرض فلا تدري أين يُقيم ، ولا أي البلاد تشتمل عليه .

وما علم قصته من أمه ، حتى أطلعت الدنيا في عييه ، ودارب به الأرض ، وحرّاً صَعِيقاً ؛ ولم يفق من غششته حتى كان قلبه قد استقر على أن ينتقم لأبيه ، وأن يبعد عن أعداء قومه ، ويلحق بأعمامه ودوى صله ؛ وجعل يدبر الحيل ، ويفتنم الفرص ، حتى حقق غرضه وأنفذ قصده ؛ فطعن خاله جاساً وأسرع هارباً إلى عمه المهلهل في منازل تطلب .

فكان هذا الحدث تنمة الأحداث ، وقاصم الظهور ، ولم يبق لشيبان بعده من نأس ، فقد ذهب بذهاب حساس آخر من بقى من أطلالها ، وهيمض جناحها ، وكُسِرَ شوكتها .

وبقى الشيخ مرة في شيدان وحيدا ، قد أحنت طهره السنون المتطاولة ، وعصفت به أحداثها المتعاقبة ، واجتمع عليهم مصاب الهزيمة ، وحرن فَنَقَدَ الأعراء من أنثائه ومن فرمان شيبان الذين قصفتهم الحروب واحداً بعد واحد ، وتركهم مغفرين في الوديان تنهشم السباع وجوارح الطير . فتضمضت نفسه ، وانطفأت فيه سورة الكبرياء التي كانت من قبل تدفعه وتجمع به . فلم يجد بداً من أن يسعى إلى مصالحة المهلهل ، والتذلل له حتى

يحفظ على قومه البقية الضئيلة التي بقيت لهم من ذراري المستقبل . كان لا بد له من مصالحة المهلهل ، إذا شاء أن يبقى في شيبان باق من هذه الصبية الصغيرة ، التي كان يراها تسعى حوله ، وليس فيهم إلا من فقد أباه ، وعمه وإخوته . فإن شيبان لم يبق فيها إلا هؤلاء الصغفاء ، بعد أن أفضى المهلهل في وقائعه كل من استطاع الحرب من كهول وشبان . ولم يجد الشيخ مرة من يلجأ إليه إلا الحرث بن عباد سيد بني ثعلبة ، ذلك الذي اعتزل الحرب منذ أولها ولم يرض أن يشارك قومه البكرين في ميادينها ، لأنه لم يرض عن ظلمهم وبغيهم في قتل كليب ، وإصرارهم على الظلم إذ أبوا أن يرضوا بنعمهم التغلبيين في دمه الكريم . فاعتزل منذ ذلك الحين وترك البكرين يقاسون عاقبة ظلمهم ، ويلاقون صدمات المهلهل العنيفة وحدهم .

لحاً مرة إلى الحرث بن عباد وخضع له يستلين قلبه ، على تلك البقية الضعيفة من شيبان ، وطلب إليه أن يبعث إلى المهلهل فيرجوه أن يقنع بما أصاب من دماء نكر ، وأن يمنّ عليه بالصلح فقد صار هامة يومه أو غده ، فهو لا يحرص على شيء إلا أن يدع هؤلاء الصبية من شيبان فرصة الحياة . فرق له الحرث ولم يشأ أن يزيد آلامه بلوم ، أو أن يذكره بما مضى من بغيه وكبريائه . وخف إلى معوته مبادراً ، فأرسل إلى المهلهل وفداً يرجوه أن

يعود إلى مسألة بنى عمه بعد أن أصاب منهم ما أصاب في ثأره .
وأراد أن يسأل نقيّة الحقد من قلب المهلهل ، فمعت إليه مع الرسل
ولده بجيرا بكتاب يستمط قلبه فقال له : « إني مرسل إليك
ولدى بجيرا وهو عندي حبيب ، وفوضت إليك الأمر فيه ، فإن
لم تكن رضت إلى اليوم بمن قتلت من شيبان فدونك انى جعلت
فدائك ! فإما قتلته بأحيك الكريم فهو كفء له ، وإما أطلقتته
متكرماً إذا رأيت أن تمنّ به علىّ . وأنا في الحالين راض مادمت
تمود بعد ذلك إلى السلام ، وترضى بإصلاح ذات البين ، فقدمصى
من الحيين في هذه الحروب الطويلة من كان بقاؤه حيراً لنا ولكم » .
ومضت أيام بعد سير الوفد إلى المهلهل ، وكان مرة ينتظر
عودتهم في قلق ولهفة ، وقد ملك عليه الحزن قلبه ، فلم يدع فيه
مكافاة لتجمل أو اطمئنان .

وكان في يوم من هذه الأيام جالساً في فناء منزله ، وإلى جانبه
صديق له من بنى عمومته ، يحاول أن يعريه ويخفف عنه ، ويبعث
في قلبه الرجاء ، ولكن اليأس كان يملك على الشيخ كل أمره ،
فكان لا يبالك نفسه من البكاء ، فقال له صاحبه :

— أما تتجمل بالصبر يا أبا الحرث ؟

فقال الشيخ والحسرة تغلبه : ماذا بقى لى في الحياة يا أبا مالك
حتى أجمل وأصبر ؟ إن هـا إلا يومان أقضيهما في البكاء ثم أمضى .

فقال أبو مالك عاطفا : « لئن بكيت يا أبا الحرث لقد حق لك البكاء . ولكننا كنا نأسى بصبرك وتثبت بثباتك . فلسنا نملك اليوم معك إلا الرثاء لأنفسنا لما فقدنا من أسوتك » .

فقال مرة متنهدا : « واحر قلباه ! لم يبق لى أحد من ولدى . لم يبق لى إلا هذه الفتية الصغار من أبنائهم ، الذين حكم الدهر على أن أعبس لأراهم حولى أيتاماً ضعافا . . . واحر قلباه يا همام ! واحر قلباه يا جساس ! » .

ثم أخذ يبكي بكاء مرأ ، وصمت جلبيه ينظر إليه فى حزن عميق . وأقبلت عند ذلك امرأة تسير فى بطاء ، تتعثر بأذيال ثوبها الأسود ، وتمسح عينيها بطرف حمارها الذى أسدلته على وجهها ، تخفى تحته عبراتها ، فلما صارت إلى جوار الشيخ ، وقفت صامتة تنظر إليه لحظة ثم غلبتها المبرة ، فجعلت تنسج ووضعت كفيها على عينيها .

فتبته الشيخ إليها عند ما سمع شهقاتها ، فنظر إليها بعينيه الكليلتين ، وقال بصوت مترجف فيه بحة البكاء بهزة الإشفاق :
— جليلة ؟ جليلة ؟ .

فقال المرأة من بين شهقاتها : « نعم جليلة يا أبى . جليلة الشقية يا أبى ! » .

فد الشيخ إليها يديه المرتعشتين وقال بصوت متهدج : « تعالى »

يا ابنتي ، اجلسي إلى جوارى ، وامزجي دمعك بدمعي فقد أصبحت
مثلك لا أستطيع إلا البكاء » . ثم جعل ينشج مثلها نشيجاً مرأ .
فجلست جليلة إلى جنبه ، ووضعت يدها على رأسه وأسندت
رأسها باليد الأخرى وأخذت تشاركه في البكاء ، فلم يقو أبو مالك
على البقاء معهما فقام عنهما ، وذهب وهو يرفع يده إلى عينيه
ليمسح دموعه ، بواسأه لم يستطع أن يمنعها . ومضت على الوالد وابنته
ساعة في البكاء ، وكان اللمع قد أزال عنهما بعض وجوههما وفك
من عقدة الحديث بينهما ، فالتفت مرة إلى جليلة قائلاً : « كفكفي
دمعك يا بنيتي ! » .

فمسحت المرأة بكفها على ظهر أبيها وقالت : « لست أدري
يا أبي ماذا أقول لك . لم أجد في نساء العرب من هي أشد مني
نحساً ، ولا أبلغ مني شقاء ، حتى لكان الزمان لم يجد سوى
غرضاً ! » .

فد الشيخ يده إليها وأخذ يدها بعطف ولكنه لم يتكلم .
فقضت المرأة تقول ، ولا تزال تنشج بين كلماتها : « لم يكف
هذا الزمان ما أصابني بقتل زوجي وجميعتي بإخوتي وأنساء إخوتي
وأعمامي ؟ فأبي إلا أن يجعلني دائماً بين القاتل والمقتول ، ويقف بي
أبدًا بين السنان الطاعن والقلب الطمون . قتل زوجي وكان قاتله
أخي ، ثم قتل إخوتي وقوي في ثأر صاحبي ، فكان الانتقام له

بيتر أعضائي وتقطع أوصالي ، ثم حتم على أن يكبر ولدى الهجرس
بين ظهرا في قوم أبي ، وهو يحمل في دماؤه المداوة لهم ، ويضم
بين جنبيه قلباً يطالبه بالثأر منهم ، حتى انتهى أمره إلى ما انتهى
إليه من فجيعتي بآخر إخوتي الذي أكرمه ورباه ، وزوجه بابنته
وواساء بنفسه ، ثم سار إلى قومه ليشار بهم في حربهم على قومي ،
فقلبي عليه يتحرق ومنه يتمزق ، إن أصاب أصابني ، وإن أصيب
أُثكلني . واجر قلباه ! وأين الموت مني يا أبتاه ؟ .

وكان لقول جليلة عند الشيخ أثر أبلغ من أثر التعزية ، فجف
دمعه ، وسكن نشيجه ، وهدأت أنفاسه منذ وجد مصاب ابنته
أفدح من مصابه ، ورآها أجدر منه بالمواساة وأحق بالرحمة .

ورفع بصره الكليل إليها ينظر في وجهها ، فاعترضته سحابة
من الظلمة تمنشاه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يدرك مقدار ما
أصاب ابنته الجميلة من تغير وتبدل . لقد ألته الهوموم كل تلك
السنوات عن أن يملأ عينيه منها ، ولم يلحظ فعل السنين فيها ،
فلما رآها عند ذلك رأى امرأة ناحلة شاحبة : وجه علتها الفضون ،
وبشرة نكشت ، وعود ضئيل ، ونظر كليل ، وجسم متهدم ،
ونفس يفيض منها الحزن واليأس ؛ فتسنى حزنه في لحظة ، وجعل
يحاول التخفيف عنها ، وغاض دمه وأخذ يعمل على تخفيف
دمعها . قال : « لقد مضى دهر على قتل كليب ، ومضى بعده من

الأعزاء من سلكوا سبيل الماضين قبلهم . وهل في الحياة بقاء
يا ابنتي ؟ ولئن كان مصاب جساس حديثاً ، يصب القلب لقرب
عهده ؛ فإن حزني عليه أذهلني عما كان يلبق بي ، ولم يكن
الهجرس في قتله يا ابنتي إلا أحد العرب يثار لأبيه ، ولعل هذا
المصاب يكون آخر السماء ، ولعل ذلك الضَّيْبَان العاسي مهلهل
ابن ربيعة يجهد في قتل جساس ما يروى ظمأه ، ويكفيه من ثأره .
فوقعت كلمات الشيخ في قلب جلييلة موقع الدهن على
قرحة الحريق .

فسحت دموعها وخفت شدة نشيجها ، وقالت وهي أقل
يأساً : « وبماذا أجاب المهلهل على رسالتك يا أبي ؟ » .

فقال الشيخ بعد صمت قصير : « لعل الرسل يعودون اليوم .
لقد كان موعدهم أمس ولكنهم لم يعودوا » .

وهت جلييلة أن تستمر في حديثها ، ولكن أبا مالك أقبل
عند ذلك مسرعاً نحو الشيخ ، فعلمت أنه يريد التحدث إليه .
فقامت وذهبت نحو الخيام ، وقد أسدلت خمارها على وجهها ، ولا
تزال عيناها تبضان .

وقف الرجل عند الشيخ لحظة ثم قال بعد تردد قصير : « لقد
عاد الرسل إلى الحُرث بن عباد » .

فرفع الشيخ رأسه بحركة سريعة ، وقال بلهفة : « وما خبرهم ؟ »

فقال الرجل بصوت أجش خفيف : « كان رد مهمل
قتل بجير » .

فنهض الشيخ يتحامل ولا يقوى على النهوض ، وأسندته
صاحبه حتى وقف على رجلية مترنحا ، ثم قال في فزع ويأس :
« قتل بجير ؟ قتل بجير بن الحرث ؟ » .

ولم ينتظر جوابا على سؤاله ، بل سار مضطرب الخطوات ،
وأبو مالك يسنده من ذراعه وقصدا نحو خيام الحرث بن عباد .

كان الحُرث بن عباد في فناء خيمته عند ما جاء الوفد إلى
الحى عائدين من رحلتهم إلى المهلهل بن ربيعة . وكانت زوجته أم
الأغر ابنة ربيعة أخت كليب والمهلهل قاعدة عند أطراف الخيام ،
تنتظر كهاتين كل يوم عودة الوفد لكي ترى ابنها الحبيب عائداً
معه . فإنها أحست منذ أرسله زوجها أن فلذة كبدها يسير مع
ذلك الوفد متعرضاً للهلاك . كانت أم الأغر تعرف أخاها المهلهل ،
وكانت تحس أن الرحم لن تلين قلبه ولن تعطفه على ولدها الحبيب ؛
لأن دم كليب قد طمس على قلبه ، فلم يبق فيه محلاً لرحمة ولا
مودة . ولما رأت الرسل مقبلين وحدهم ، أحس قلبها بما كان كأنها
شهدته بعينها ، فقامت مسرعة تسأل في لهفة عن ولدها سؤال
الواله المشدوه ، فأطرق الرسل ومضوا في سبيلهم نحو خيمة زوجها
صامتين ولم تقو ألسنتهم على النطق أمام الأم الثكلى . فاشتعل قلب
المرأة وصاحت في لوعة ، وولولت تنوح في حرقه ، وسمعا نساء
الحى فأقبلن نحوها سراعا وأجبنها بالمويل حتى اشتعل الحى كله
بالصياح والبكاء .

وقام الحُرث مسرعاً ليتعرف مبعث الضجة المنتشرة ، فلما
رأى الرسل عائدين وحدهم وليس فيهم يجير أدرك ما كان ، ولكنه

ملك نفسه وكبت ما في قلبه . وذهب بين الخيام يهدد ويسب ويؤنب وينهى ، واتجه إلى امرأته وقال لها عابساً بصوت كهدير الفحل : « يا أم الأعر . لا أرين إحداكن تبكى أو تصيح ، ولا أسمع منكن صوب نحيب أو عديد ، فوحق مناة إن ابني لنعم القتل . كافأ خاله وأطفا ثأره ، وأنا بقتله راض . وليس من قوى بنى قيس بن ثعلبة من هو أكثر منه يما ولا أكرم مقتلا . فإنه قد أصلح بين ابني واثل وحقن ما بقى من دماهم » .

تخمدت الأصوات من رهبة السيد الصارم إلا نشيج الأم الثا كل وهي تحاول كتمان صوتها طاعة لزوجها ، وتأبى حرارة كبدها أن تطيع . فاصرف الحُرث إلى الرسل ، ومضى بهم إلى فنائه ، ليسألم عن جواب كتابه . فاتجه إلى كبير الوفد وقال هادئاً : « ماذا قال المهلهل يا أبا ضبيعة ؟ » .

فوقف أبو ضبيعة حيناً صامتاً ، وكان قصيراً دميماً . فنظر إليه الحُرث وقال في شيء من الحلق : « قل جوابك أيها الرجل » . فاقترب الرجل من الحُرث كأنه يريد أن يهمس في أذنه ، ولكنه لم يقدر على أن يبلغ كتفه ، فتردد وبقى مطرقاً . ففرف الحُرث أنه لا يريد أن يتكلم في ملأ بنى ثعلبة ، فجذبه من ذراعه في شيء من العنف حتى تنحى به إلى جانب وقال غاضباً : « تكلم يا جحدر أجبن بما قال المهلهل . قل ولا تخف من قوله شيئاً فلي

يبلغ من القسوة مثل قتل ولدى . هل رضى المهلهل بدم بجير ؟
فنظر جحدر إلى الأرض وقال بصوت خافت : « ماذا أقول
لك ؟ إذا شئت لإيجازاً قلت لك إنه قتل بجيرا ولم يرو به غلته » .
فصر الحُرث على أضراسه وقال للرجل : « إذن فلتحمل إلى
أذنى كل ما كان منه . قل ولا تدع أمراً إلا وصفته » .

فأخذ جحدر يَص على الحُرث ما كان من المهلهل منذ ذهب
الوفد إليه ، وجعل يفصل له وصف ما رأى من عنفه وسوء رده ،
حتى بلغ وصف ما كان منه عند ما رأى بجيرا وسأله عن اسمه .
فأغمض الحُرث عينيه وتنفس نفساً عميقاً وقال لجحدر :

« دع ذلك الحديث ولا تطل فيه . لقد قتله » .

فنظر إليه جحدر متردداً وأمسك عن الكلام لحظة ، فصاح
به الحُرث قللاً :

« امض ! امض في حديثك . أليس قد قتله ؟ » .

فقال جحدر وهو مطروق : « لقد وددت أننى لم أشهد ذلك
الامر ولم أَسع فيه . فإن تلك الصورة لا تزال ماثلة أمام عيني
لا تفارقنى في سير ولا في إقامة ، ولا تبعد في ليل ولا في نهار .
ولو كانت دماء تغلب تملأ البحار التى تحيط بالأرض ما حسبتها
تروى غليل بنى ثعلبة . لقد قتله وهو يقول : بؤ بشسع
فعل كليب ! » .

فارتد الحُرث إلى الوراء خطوة ، ونظر إلى محدته وقدم قَلَصَتْ
عضلات وجهه وزوى حاجبيه وصاح بصوت أجش : « ماذا قلت ؟
نشع نعل كليب ؟ » :

فهر جحدر رأسه ونظر إلى الأرض وهو يقول في حرن :
« نعم بنشع نعل كليب » .

فصاح الحُرث : « ألم يكن في تغلب رحال ؟ ألم يكن في تغلب
رجال ؟ » .

فقال جحدر : « كان امرؤ القيس بن أبان يحاول أن يردّه
فلم يستطع . لقد بالغ في النصيح والرجاء ، ولكن صوته غرق في
العاصفة الهوجاء » .

فرفع الحُرث يده مقبوضة فوق رأسه وعض على نواجذه
وتنفس نفساً مضطرباً كأنه يختنق ثم قال : « ويل الداعر من
غدره ! يا ويل زير النساء ! » . ثم سار مسرعاً نحو مضارب خيامه
يهول في اضطراب وقلبه يحترق من الغيظ . وكان في سيره يبعث
ألفاظاً متقطعة كأنه يخاطب نفسه ، ويتبع كل لفظ منها آهة
مبحوحة ، وكان جحدر وإلوفد يسرون وراءه حتى إذا اقترب من
منازله نظر وراءه إلى جحدر وقال في صرخة مكتومة : « لقد
بر الخبيث بمهده يوم قال إنه لن يدع شيئاً لسكليب حتى ينتقم له ،
حتى الشُّسع الذي كان يربط به نملّه . فكان ولسى قتيل ذلك الشُّسع » .

ثم ضحك ضحكة غيفة حتى ظن جحدر أن الرجل قد جن من وقع مصابه .

فلما صار بين خيامه وقف وصاح ينادى عبيد بن كانا في رحبة الحى وقال بصوت ثائر غاضب : « قَرِّباً مَرِبطُ النعامة منى ! »

ثم ذهب إلى خيمته وغاب لحظة وخرج ورعجه في يده وهو يهزه هراً عنيفاً ويشمر كمّ ثوبه عن ذراعه . وصاح بصوت يُدوى : قَرِّباً مَرِبطُ النعامة منى لَقِحت حرب وائل عن حِيال ثم وقف وركز رعجه في الرمال وقد غلبه الغضب وامتزج في قلبه حقد الموتور بحزن الأب المفجوع ، ونظر فرأى امرأته جالسة في جاب الخيمة تبكي وتحاول إخفاء صوتها ، ونظرت إليه بعينها المحمرتين فلما رأت ما على مظهره من أثر الغضب قامت نحوه متمجبة حتى اقتربت منه كأنها تحاول أن تسأله عما غيره . فنظر إليها ثم نظر إلى جحدر وصاح كأنه يخاطبه :

قل لأم الأغر تيك بجيرا حيل بين الرجال والأموال
فلعمري لأبكينُ بجيرا ما أتى الماء من رؤوس الجبال
لهفَ نفسى على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الكريم بالشسع غال
ثم صمت قليلاً كأنه غصّ برقه ، فانفجرت أم الأغر صائحة كأنها كانت تنتظر تلك الكلمات لكي تفرج عن نفسها بالهويل

والبكاء . وأسرع إليها النساء فعاودن ما كن أمسكن عنه من
النذب والعيول واشتعل الحى كله بالبكاء . واستأنف الحرث القول
بعد حين وهو ينظر بعينين شاخصتين نحو الأفق لا يلتفت إلى جمع
بنى ثعلبة التزاحم حوله .

فصاح فى حزن وغىظ :

يا ببحر الخيرات لا صلح حتى تملأ البىء من رؤوس الرجال
لم أكن من جناتها علم الله وإنى لحرها اليوم صال
ثم صمت وأطرق حيناً لا يقوى على الكلام . ثم انتفض
فجأة وركز رمحہ فى الرمال وسل سيفه وهزه فوق رأسه وعاد
إلى إنشاده بعد أن استطاع الكلام فصاح بصوت يشبه هدير
الريح بين الصخور :

قربا مربط النمامة منى لقت حرب وائل عن حىال
فلممرى لأقتلن بىبحر عدد الذر والحصا والرمال
قربا مربط النمامة منى ليس قولى يراد لا بل فعالى
ثم أغمد سيفه وألقى برمحہ أمامه فى وسط حلقة الرجال وتحرك
مهرولا راجعاً إلى خيمته وهو يهيمهم ويهدر ، فجعل يبحث عن
سلاحه ودروعہ ، وأخذ قوسه التى كان قد نزع عنها وترها وأخذ
قطعة من الجلد كانت فى ركن من الخيمة وخرج على قومه وهو
يربط طرفها فى رأس القوس ويقول فى أثناء ذلك كأنه يخاطب نفسه :

قربا مربط النعامة منى قرباها وقربا سربالى
قرباها وقربا لأمتى زَغفا . دِلَاصا تَرَد حَدَّ النبال
قرباها لمهفات حداد لقراع الكهول يوم النزال
وأخذ يذهب إلى خيمته بجهر فيها سلاحه شيئاً بعد شيء ،
وهو كلما جهر شيئاً خرج به وأنشد قومه بيتاً أو بعض أبيات ، ثم
يرجع إلى الخيمة فيجهز شيئاً آخر يعود بعده إلى رحبة الحى لستمز
فى إنشاده المضطرب حتى تجمعت فى الرحبة كومة من الدروع
والسلاح .

فى هذه الساعة كان الشيخ مرة قد بلغ منازل الحُرث ورأى
الفرسان ملتفين حول زعيمهم الثائر ، فافرجت له الجموع حتى
اقترب من الحُرث ومد يده إليه وقال له بصوت متهدج : « مصاب
جلل يا أبا بجير ! » .

فالتفت الحُرث إليه ومد يده إليه مصافحاً وقد ملك نفسه حتى
علا وجهه السكون وزال عنه اضطراب الغضب ، واكتسى بدل
ذلك هدوءاً ينم عن عريضة ثابتة وقال يخاطب الشيخ : « ستذوق
تقلب عاقبة ظلمها » .

وكانت فرسه النعامة قد جاءت إليه عند ذلك يقودها العبدان
فاقترب منها ومسح رأسها وهى تصهل وتمسح به . ثم اخترط
سيفه وقبض على شعر ناصيتها فجزه ، ثم قبض على ذيلها الطويل

فقطعه ، وقد سكنت الفرس وظهر عليها وجوم يشبه أن يكون
حزنا وقال كأنه يخاطبها : « ليس بعد اليوم تدليل » .
ثم دفعها إلى العبدین الواقفین عند رأسها في صمت وخشوع
وقال : « قرباها مني فالليلة نسير إلى قتلة بجير » .
ثم أخذ الشيخ مرة من تحت ذراعه وسار به إلى خيمته
وتبهما جحدر وبمض كبار قيس بن ثعلبة واصرف شبان الحى
ليعدوا خيولهم للغزوة العاجلة في تلك الليلة .

كان صباحاً عاصف الرياح ثائر الرمال ، وكان الحر على وقته ولم تطلع الشمس بعد ، تكاد الأفاس تحتنق منه ؛ حر يشقق الشفاء ، ويحرق الوجوه ، ويخرج الصدور .

وكان فرسان تغلب مجتمعين واجمين لما بلغهم من تحرك بكر إليهم مرة أخرى وإقبالها عليهم بالعدد الكبير ، والسلاح المشحوذ ، والخيال المسومة ، ومعهم الحرث بن عباد قى قومه بنى قيس ابن ثعلبة .

لقد اشتد ساعد بنى بكر منذ غضب الحرث بن عباد لقتل ابنه بجير ، والتف حولهم من كان قعد عن نصرتهم من العشائر والبطون ، وضمت تغلب بمن انصرف عنها من حلفائها ، حتى لم يبق معها إلا قبائل النمر بن قاسط . وفى مدة عام واحد ذاقت مرارة الهزيمة مرة بعد مرة ، وجعلت ترد من موطن إلى موطن ، وتنزع من موضع بعد موضع ، حتى ألقت رحالها أخيراً عند (قضة) فى أطراف نجد من الشمال . ولكن الحرث بن عباد لم يضع ثأره ، ولم يهدئ من حقه ؛ بل كان لا يزال يثب فى أثر تغلب لينتقم لقتل ابنه الحبيب بجير المظلوم ؛ وكانت شيبان تقبل معه على الحرب

تحت راية الحرث بن همام بن مرة ، كأنها الذئب الجامعة ، لتفسل
عن كرامتها ما أصابها من هزائم تغلب في طوال السنين المنصرمة .
اجتمعت تغلب في ذلك الصباح القائن في رجة حلالها يتشاور
قاداتها فيما هم فاعلون في لقاء عدوهم المقبل ، فقد سمعوا أنه مُغير
عليهم يجيش خبش ليعيد عليهم الكرة بعد انتصاره الأخير في
وادي القصبين ، يقوده الحارثان : الحرث بن عباد ، والحرث
ابن همام ، الذي آلت إليه زعامة شيبان .

جلس شيوخ تغلب ، وأصحاب الرأي فيها ، ومرسانها الشجمان
من الشباب ، وقد لفوا اللثم على وجوههم اتقاء الرياح اللافة ،
وعصف الرمال يزيد نفوسهم الثائرة ضيقا .

ووقف الفارس الكهل امرؤ القيس بن أبان يتكلم ، فأرهف
الجلوس آذانهم لاختراف كلماته من أذيال الهواء الصاخب . فقال
« أي قوم ! لا تردوا اليوم نصيحتي فقد جربتم من عواقب إغفالها
ما كان أولى بكم لو تجنبتموه . لقد نصحت المهلهل ألا يقتل الفتى
ابن الحرث فلم يقبل نصيحتي ، ولقد رأيتم ماذا حل بنا من وراء
بفيه ، رأيتم تآلب بنى بكر علينا بعد أن كانوا عونا لنا ، فلا يمحى
يوم حتى نسمع بحليف منهم ينفذ من حولنا ، أو نصير منهم
ينضوى تحت لواء عدونا ؛ وإذا تمادى الأمر بنا بعد اليوم لم نأمن
أن يحل بنا من الكوارث أمثال ما أئزلناه بآل شيبان في تلك

السنين . فالرأى عندى أن نرحل من هذا القفر الأجرد ، وحسبنا ما لقينا فيه من هزيمة بعد هزيمة فإذا نحن عدنا إلى ديارنا . . . » .
وأراد امرؤ القيس أن يمضى فى قوله ، لولا أن قام شاب وسيم من طرف الجماعة ، وصاح به غاضباً : « حسبك يا امرأ القيس من حقدك على المهلهل . فوحق مناة إلك لا تقول قولك هذا إلا حسداً له ومنازعة لسيادته » .

وتحرك لسماع هذه الكلمات جماعة كان جلهم من شبان تغلب الذين لا يرون فى المهلهل إلا بطلهم المهيّب ، وفارسهم الذى لا يبارى ، يحبون أن يسيروا وراءه فى كل موطن ويطيّمونه وإن مضى بهم إلى برك السّهاد من أقصى الأرض ، فقد تعلقت نفوسهم به ، وحل الإعجاب به من قلوبهم حيث لا تبلغ النصيحة .

وارتفعت أصوات هؤلاء من جواب الجمع يقولون : « صدقت يا هجرس ! صدقت يا هجرس بن كليب ! ببدأ للجبّناء ! لا نطيع غير المهلهل » .

ونظر الشيوخ حولهم مترددين ، وقام بعضهم يريد الكلام فلم يقوْا على إغراق ضجة الشباب النّاثر ، فلم يجد امرؤ القيس بن أبان بدأ من الصمت ، ومضى ذاهباً عن الجمع وهو غاضب حتى قبع ممّتلاً فى حلّته . ونهض القوم بعده فى اضطراب وضجيج ، فأنصرف الشيوخ واجمين فرادى وتُناء ، واجتمع الشبان فى صعيد

واحد وقد جرفتهم الحماصة ، وساروا والهجرس بن كليب في طليعتهم قاصدين رحلة المهلهل ، يهتفون به ويمجدون المهد على طاعته ، فقد كان المهلهل في هذا اليوم مقبياً في بيته ، لم يحضر في ذلك الجمع من أثر جراح أصابته في آخر وقعة أصابتهم بكر فيها ، وقعة القصيبات . وسمع المهلهل ضجعتهم وهو في فراشه ، وكانت ابنته سلمى تمسح الدماء عن جرح عميق في أعلى ذراعه بعد أن ضمدت سائر جراحه ، وكانت تحدثه عن زوجها وابن عمها الهجرس بن كليب الذي تزوجها عند ما لازم بعمه في قومه بني تغلب بعد أن قتل خاله جساس بن مرة . ولما انتهت من غسل جرحه بالماء الساخن وذرت عليه رماداً من أعواد طرفاء محروقة ، ولفت حوله ضمادة من الصوف فقال لها أبوها :

— أما قال لك الهجرس أين خرج اليوم ؟ لقد بكر في الخروج قبل أن أراه

فقلت له سلمى مترددة : ذهب إلى الناس ليرى ماذا يصنع يهيم ابن أبان

فتحرك المهلهل في مكانه قلقاً وأراد أن يعد يده إلى سيفه ، ولكنه ردها ممتعضاً من الألم الذي أحسه عندما حركها . فنظر إلى ابنته وقال لها في غيظ : «لقد تحرك ابن أبان منذ اليوم . أو يحسب أن هذه الجراح تقعدني في كسر بيتي ؟ لا وحق مناة ، ما أدهه

ينفث سمه . ولأسحقن رأسه قبل أن يستطيع أن يبلغ مأربه .
ثم تحامل حتى قام وقال لسلى :
« ألقى على ردائي وشملتى . فلاذهبن إليه . لأهشم أنفه قبل
أن يرفعه » .

فقات لسلى : « لا يرعك ابن أبان يا أبت ، فإن الهجرس
هناك يرى ويسمع . ولا أظنه يدع له مجالاً لإفساد الناس وتقريق
كلماتهم . لقد حدثني الهجرس عن أصحاب له تواعدوا على أهبة ،
ليفسدوا على ابن أبان تديره ، وقد أخذوا السلاح وجملوه تحت
ثيابهم ، فإذا لم يستطيعوا تدارك أمره باللفظ حكموا بينهم وببنة
السيف » .

فاطمأن المهلهل لقولها شيئاً ، ولكنه أطرق قليلاً ثم رفع
رأسه وقال :

« ما ينبغي لى أن أطيل احتجاجى عن الناس يا سلى ، قد
عرفت الناس ، فهم لا يذكرون من تطول غيبته . هاتى
شملتى وردائى » .

فلم تستطع سلى إلا أن تطيع أباهما ، فذهبت إلى ركن من
الخيمة وأخذت تلتصق لآيها بمض ما اعتاد لبسه فى نوادى قومه
من ثياب الديباج الأصفر ، والقباطى البيضاء وبرود اليمين الموشاة ،
وحملت من ذلك شيئاً فى يديها ليختار منها ما يحب ، ولكن ضجة

كانت تقترب عند ذلك ، فيها أصوات ترتفع حيناً وتخبو حيناً . فوقفت في مكانها لتسمع ، وأصاخ الملهل بأذنه في شيء من الدهشة ؛ ثم اقتربت الأصوات واتضحت ، فإذا بها صيحات تهتف باسم الملهل سيد ريعة ، وميزت منها سلمى صوت زوجها الحبيب الهجرس بن كليب . فتسمت وتبسم الملهل ، وقد وقع في قلبهما أن الهجرس قد حمل معه تغلب وأفسد وحده تدير ابن أبان . وألبست سلمى أباه ووضعته ثوباً من الديباج على كتفه ، فلما صار الهجرس وأصحابه في رحبة الحى خرج عليهم الملهل هشاً بشاً ، وما كاد جمع الشباب يراه حتى علت أصواته في تحية صاخبة ترددت أصدائها بين ثنايا الشباب ، فتبسم الملهل وركز رمحاً في الرمل واتكأ عليه يسراه ، وقال بعد أن هدأت الأصوات :

— صرعى يا شباب تغلب ! فقد أقرتم عيني ، وأزلم ألى .
إن جراح الحرب التى مزقت جسمى تنطق مرجبة بكم ، كأن فى كل منها لساناً يتحرك بشكركم . لقد ثارت تغلب منذ سنين طويلة تطالب بدم بطلها الذى لم يكن فى العرب له كفاء ، وأميرها الذى هجز النساء أن يلدن مثله ، وإن تطاول الدهر . ولم يكن فى تلك الدماء التى أهرقت من العدو ما يقوّم بدمه أو يفي لنا بحقه . بل لقد قتل من أبطالنا فى مواقعهم من لا تشفينا دماء بكر جميعاً من وترنا بهم . فليس بيننا وبين القوم إلا حد السيوف ، وأسنة الرماح .

لأنوادعهم ولا نخيم عن لقائهم حتى نفنيهم تقتيلاً ، ونقطع أوصالهم تقطيعاً . واكليباه ! هل ترجع السيوف إلى أغمادها ولا يزال في بكر شريف ؟ واتقلباه ! هل ندع دماء من قتل من تغلب ولا يزال بعدوكم جمع . ليس بيننا وبينهم إلا طعن الكلى وضرب الرقاب ، وتقليق الهام وتخريق الصدور . وإذا كان في تغلب من زعزعت أول صدمة فبعداً للجبناء ! ألا بعداً للجبناء !

فتلقف الجمع هذه الكلمة وصاح في حماسة : « ألا بعداً للجبناء ! » وجملوا يرددونها .

وسكت المهلهل عند ذلك فإن الضجة التي علت من صيحات الجمع المضطرب أغرقت آخر كلماته فلم يستطع المضي في الحديث . وعاد السيل الثائر من ساحة المهلهل وتفرق بين الأحياء منادياً للحرب ، فلم يبق في مازل تغلب من تجرأ على أن ينطق بحرف في ذكر امرئ القيس بن أبان .

ودخل المجرس إلى خيمة عمه فحدثه بما كان من قول ابن أبان وما كان منه ثم قال :

— ولا أحسب الأمر ينتهي يا عماء إلى حيث انتهى إليه لو طال بنا المقام .

فقال المهلهل وقد عبس عبسة عميقة :

— أجل يا ولدى ! لن أطمئن وهذا الأرقم يتحين الفرص

للوثوب . ولكن هون عليك فما كان عمك ليخاف هذه الزواحف .

فقال الهجرس :

إن امرأ القيس قد ذهب إلى منزله اليوم ولا أراه يجرؤ على أمر إلا بعد أن تنصره هذه الفئة من الشيوخ .

فأطرق المهلهل حيناً ثم قال في غيظ :

— وحق آلهة وائل ما هو بمنته حتى أذيقه* عضة شبيق .

ولو لا أن يقول الناس إن المهلهل يقتل أصحابه لما أبقيت عليه منذ حين . لقد عرفته ورأيت خلافه على منذ بصحنى فى أمر يجر . فإنه ما قال كلمته التى قالها يقصد النصيح ولا الخير ، بل قالها لتسير فى الناس فتكون وصمة عار تلحق بى .

فقال الهجرس : « وإنه لا يزال يتحدث بها إلى الساعة . وكانت هى أول كلماته فى اجتماع اليوم » .

فقال المهلهل : « ويل له من خيىث ! إنه ليضل الحق من قوى إذ يسمعون أنه نصحنى بالعفو عن الفتى المسكين ابن أم الأغر فمصيته وقتلت الفتى بغير جريرة » .

فقال الهجرس : « صدقت يا عماء ، فقد رأيت أثر قوله فى الناس منذ تكلم . فآخذوا يتهامسون فيما بينهم عما أصاب تغلب من جراء مخالفتك وقتل الفتى » .

فصاح المهلهل :

— أغرار وحق أوال يا ولدى ! ما بعث الحرث بولده إلى
إلا وهو بأمرنى بالكف عن حرب قومه . فلو خالفته وأيت إلا
الحرب لما كان منه إلا أن ينصر قومه . لقد عرفت منذ تحرك
الحرث أنه إنما غضب لمن قُتل من بكر ، وأنه لا يريد إلا التماس الحيلة
لإثارة الناس علم . فبعث بابنه بجير حتى يظهر للعرب جميعاً أنه قد
أرضاني ورغب في إصافى . ولو لم أقتل بجيراً لما عدل عن حربى ،
ولما انصرف عن نصره قومه . لقد عرفت أنه عدو منذ بعث إلى
رسالته . وما كان ينبغي لى إلا أن أبدأ عدوى بالحرب قبل أن يبدأنى .
وسكت لحظة ثم نظر إلى الهجرس وقال وقد ذهب عنه الوجوم :
— دع هذا يا هجرس فليس يفنى عنا القول . هى الحرب
فلنمض إليها . ستمضى إليها قبل أن تلتئم هذه الجراح . هلم يا ولدى
فلن نطيل الجبل لابن أبان ليمضى فى مكروه وكيدى . لأحملنه على
الحرب حملاً ، إذا لم يكن من الحزم أن أجمه سيقى . هلم يا ولدى ،
فالليلة نستعد للقاء عدونا .

ثم خرج وسار الهجرس إلى جواره يقصدان مجمع القوم فى
الطرف الآخر من الحلة .

بجهر بو بكر للمسير إلى تغلب في وادي قِضة ، ولم يدعوا
 لهم فرصة ينفسون فيها عقب هزيمتهم في القصيبات ، وقد انتعشت
 نفوس بكر بعد هزائمها المتكررة ، وعاودها الأمل والقوة بعد
 الانتصار ، فلم تطلق الصبر ، وأرادت أن تنهز فرصة ما أصاب
 أعداءها من الوهن والجراح لكي تجمل الوقعة المقبلة قاصمة الظهر .
 وزاد من حرص بكر على الإسراع إلى مواصلة الحرب ما بلغها من
 أنباء الخلاف بين شيوخ تغلب وشبانها ؛ فقد سار الركبان بأحاديث
 ما يضره المهلهل لامرئ القيس بن أبان ، وما أحدثه الهجرس بن
 كليب من الفرقة بين شيوخ القوم وبين ناشئتهم ، فعلموا أنهم إن
 صدموا عدوم صدمة عنيفة لم يجدوه إلا مقسم الأهواء ، مشقت
 الآراء . فلم تقدم شدة الحر عن الاستعداد السريع ، ولم تنهم
 الرياح العاصفة المحرقة عن عزيمة المسير ؛ فاجتمعوا في ناديم في
 لباس الحرب يتشاورون في الخطة المقبلة ، وكان فيهم فرسان من
 شيبان وقيس بن ثعلبة وعجل وحنيفة ، وفيهم الفارس الشاعر الذي
 ما زال رغم تقادم السنين بطل الحروب الفند بن سهل سيد قبائل
 بكر باليامة ، وقد أتى مع قومه لنصرة إخوانه عند ما بلغه اعتداء

المهلhel بقتل بجير . وكان الحرث بن عباد في صدر النادى وقد جلس حوله شيوخ العشائر والبطون في حلقة مفرغة ، وجلس سائر القوم صفوفاً غير منتظمة بعضها يتداخل في بعض .

ولما التأم الجمع وقف الحارث يتكلم فقال :

— يا فوارس بكر ! قد علمت ما عقدنا عليه النية من السير

إلى هؤلاء الظلمة حتى لا ندع لهم متنفساً من السلام لكي نذيقهم وبال ظلمهم ونقذف بهم في مصارع بينهم . ولكنى أشفق أن تسيروا في وقعة هذه الحرور ، فهل ترون أن نؤجل السير حتى تهدأ هذه الرياح ؟ .

ولما أتم قوله نظر إلى الحرث بن همام بن مرة سيد شيبان كأنه يدعوه إلى إعلان رأيه ، فتحرك الحرث يريد الكلام ولكن علت ضجة من الجمع لم يستطع معها الحارث أن يتكلم ، فترث وهو ينظر إلى مَنْ حوله في شيء من الارتباك . فوثب جحدر بن ضبيعة قائماً وكان قصيراً دميماً ، فأكاد يقف حتى زادت الضجة اشتداداً ، وتقاذفت نحوه ألفاظ الدعاية والفكاهة . فلم يرهبه ذلك ، بل أعلى صوته وقال بصوت حاد :

— على رسلكم حتى أقول كلمة .

وما أكاد ينطق حتى رمته الرياح الثائرة بلفحة رملية اضطرتة إلى أن يحول وجهه عنها ، وانفجرت ضحكة عالية لم يتخلف

عنها أحد من الشيوخ أو الشبان ، فضحك جحدر مشاركا في المرح
الشامل ، ولكنه لم يجلس ولم يتردد بل صاح بصوته الحاد :
— كأننى بهذه الرياح تريد أن تعدل بى عن رأيى ، ولكنى
وحق أوال لا أثنى عنه وإن قدفتنى السماء بصواعقها . لا بد أن
نسير اليوم إلى قضة .

فعلت ضجة استحسان صحبتها ضحكات ومداعبات ، وصاح فى
من آخر الجمع : « قف يا جحدر فوق صخرة حتى نراك » .
فرادت ضجة الضحك علوا ، ولم يشأ جحدر أن يدع الفرصة
بغير أن ينتهزها ، فوثب على كتنى فتى شديد قريب منه فوقف
عليهما وقال ضاحكا : « هل أغيب الآن عن عين أحد ؟ » .
ثم نزل سريعا وهو يشارك فى الضحكات العالية التى لم تقتر ،
ثم أشار بيده للقوم أن يهدأوا ، فسكنت الأصوات ونظرت إليه
الميون ومالت إليه الأسماع فى عطف فقال جادا :

— « نحن اليوم فى جماعة لم يجتمع لنا مثلها من قبل ، فإذا
نحن سرنا إلى المدو اليوم فاجأناه بما لا قبل له به وكانت الموقعة
القاضية » .

فتجاوبت الأركان بصيحات : مرحى ! أحسنت !
واستمر جحدر فقال : « ولكن لى عليكم شريطة قبل أن
أفرغ من قولى » .

فصاح به أفراد من جواب الجمع : « لك ما شرطت فاحتكم » .
فقال جحدر وهو بضحاك : « لقد هممت أن أشرط لنفسى
نصف هذا النىء الذى سنغنمه اليوم . ولكنى عدلت عن ذلك .
وحسبى أن أشرط أمراً هو أهون عليكم منه . إذا نحن سرنا اليوم
فى جماعتنا هذه خشيت أن يختلط علينا الأمر فلا يميز أحداً أصحابه
من أعدائه ، وأخشى أن يخالطنا العدو وهو قليل فلا نجد دوننا
من نضربه فيضرب بعضنا بعضاً فى حماسة القتال » .

فنظر الناس إليه حيناً فى صمت ، وقد عجبوا أن يمرج هذا
الرجل المجيب هزله بمثل هذا الجد الجاهم . ونهض الفند بن سهل
سيد بكر اليمامة فقال :

— « أما إنها لكلمة حق صدق فيها أخى جحدر وبصح .
فلقد أقبلنا عليكم منذ قليل بوجه جديدة لم يسبق لكم عهد بها ،
ولا بد لنا من علامة تتعارف بها » .

وأقبل الجمع بعضه على بعض يتحاورون فى الحديث ، فقام
الحرث بن عباد وما رآه الناس حتى خشموا وهدأت الأصوات
وتحولت إليه الأبصار فقال : « أيها الإخوان ! لقد صدق أخى
أبو ضبيعة إذ قال إنه يجب علينا أن نجعل لأنفسنا علامة تتعارف
بها ، وأرى أن نحلق رؤوسنا جميعاً فتكون تلك ميزتنا وسمتنا » .
فوثب جحدر على قدميه وقال فجأة : « وماذا يبقى لى إذا

حلفت لِمَتى يا أبا بجير ؟ » .

فعلت خجة الضحك مرة أخرى واستمر جحدر يقول ضاحكا :
« أتم ترون أن شمري نصف قامتى . وبغيره يصبح لى وجه قرد
أصلع ، فآركوا لى لتى ، وافعلوا ما شئتم فى لمكم » .
فصاح فتى من وسط الجماعة يمزح قائلا : « اشتراها منا ،
فلن نتركها لك بغير ثمن » .

فصاح جحدر فى جد : « أشتريها بأول فارس من العدو يطلع
عليكم ، لكم على أن أقتل أول فارس من تغلب يقبل نحوكم » .
فصاحت الجماعة : « قبلنا ! قبلنا ! » .

فأشار الحارث بن عباد للجماعة أن تنصت إليه ثم قال :
« لا بأس بهذا ! يبيع لجحدر لته . وأما نحن فنخلق لمنا » .
فصاح القند بن سهل ضاحكا : « هذا إذا يوم تحلاق اللهم » .
فنظر إليه الحارث باسما وقال : « نعم هو هذا ! هو يوم تحلاق
اللم » .

وسكت لحظة ثم قال : « وقد علمتم أن تغلب تقيم الآن فى قِضة
وسط صحراء مقفرة . وسنكون فيها فى أرض غريبة لا نعرف موارد
مياهاها ولا ندرى لعل تغلب قد غوّرت آبارها وطسّمت عيونها
توقعا لسيرونا إليها — فلا بد لنا من حيلة فى تدبير ما نحتاج إليه
من الماء قبل أن نذهب إلى عدونا فى عقر داره » .

فصاح جحدر وقد وثب قائماً : « نأخذ معنا من الماء ما يكفيننا حتى إذا ما التحم الجبشان حملنا لنا النساء وسرّنا من خلفنا ، فإذا عطشنا رجعنا إليهن لنرتوى » .

فصاح به شاب ضاحكا : « على أن لا يروى النساء إلا حليقا » . فقال جحدر : « لك على يا ابن أخي ألا أعود إليهن إلا مُعلّكا . لن أعود إليهن إلا حاملاتهن أسيرا » .

وكان للفند بن سهل بنتان قد وقفتا في فتيات نكر عند أطراف الجمع يستمعن الحديث ، وكانتا فتاتين ذواتي جُراة وشهامة . فصاحت كبراهما : « نسير وراءكم لنحمل الماء ؟ هذا لا نرضى به أبداً » .

فتحولت الأنظار إليها وقال الحرث : « وماذا تريدن يا ابنة الكرام ؟ » .

قالت الفتاة في حماسة : « تحمل كل منا إداوة ماء وهراوة غليظة ، فإذا مررنا بحليق طريق أسبونا جرحه وسقيناها ، وإذا مررنا بتغلبى صريع قضينا عليه » .

فعلت ضجة عامة من الجماعة — ضجة الإعجاب والأرباحية ، وقال الحرث ناظراً إلى الفند : « لتكن ابنة الفند أول امرأة في العرب أشركت النساء في الحرب ! » .

ثم نظر إلى الفتاة وقال : « هلى يا فتاة ، فثلك من تلد الأبطال ! » .

بعد ساعة كانت قبائل بكر تتحرك سائرة نحو الشمال ، وهي تملأ فضاء الأرض بالخيول والرجال والمطايا من الإبل فوقهما الظلمات من النساء تليها الروايا تحمل الماء ، وفي آخر القوم جاء العبيد يسوقون جنائب الخيل والإبل لتحل محل ما يقتل في الحرب من الدواب .

وكان اليوم التالى صنو سابقه في الحر اللافح والريح الثائرة والشمس المحرقة والرمال السافية . واجتمعت فيه قبائل بكر كلها تحت لواء الحارثين : الحرث بن عباد على جناح والحرث بن همام بن ممرة على جناح ، وأبطال القبائل كل منهم في قومه يتساندون ويتعاونون فيما بينهم . والتقى الجيشان ، فكان أول من برز من بكر جحدر بن ضبيمه يلتمس ثمن شعره الذى لم يحلق ، واندفع إلى تغلب فجأة فاحتضن أول فارس طلع عليه ، ولم يكن التغلب على استعداد لذلك النوع من المنازلة ، فهي طريقة ابتكرها الحرث بن عباد وتعلمها منه في ذلك اليوم جحدر بن ضبيمة : أن يهجم على عدوه في سرعة البرق الخاطف ، فلا يضرب ولا يطمئن ، ولكن يحتضنه ويعدو به راجعاً إلى قومه ، وعاد جحدر بأسيره مطروحاً أمامه على ظهر الفرس وهو يحرك رجليه وذراعيه في الهواء يائساً . فضحك فرسان بكر وصاحوا مرحبين ، وغضب فرسان تغلب وتصايحوا يحرض بعضهم بعضاً على دفع الهجمة بأخرى مثلها ،

وما هو إلا قليل حتى التحم الجيشان في حرب عامة .
مضى معظم النهار والقتال على استماره ، الحارث بن عباد
يُضْرَبُ ويضرب في ثغلب ، والمهلل مع جراحه يفرى فرياً في بكر ،
ودفع جحدر المسكين ثمن لثته عظيماً ، فإنه مازال يحارب حتى جرح ،
فلما صرت به فتيات بكر حسبنه تغليبا ، فطلب منهن شربة ماء
فأهوين عليه بالهراوى ، وهو كلما صاح بهن أنه تكري حسبنه
يخدعن ، فزدن في ضربه شدة حتى قتله كما قتلن كل جريح آخر
غير حليق .

ولما أحست تغلب شدة وطأة عدوها عليها لجأت إلى الحيلة
القديعة عند العرب فأدبرت مستهزمة ، وتبعها بكر وهى تظن أن
اليوم قد انتهى إلى نصر تشتق به من عدوها الشفاء الكامل ،
ولكنها ما كادت تباع وسط السهل ، حتى رأت تغلب قد وقفت
فجأة عند ما نادى صوت المهلل صائحاً : « واكليباه ! » .

وكانت تلك علامة — فوق الفرسان وارتدوا على بكر وهى
في تفككها مستتيمة إلى توهم النصره . واهتزت بكر هزة عنيفة
من الصدمة ، وأقبل عليها المهلل كالصاعقة ، وحوله حلقة من
الصناديد يضربون كأنهم يحصدون حصداً ، فتردد البكيرون ملياً ،
ثم ترزعوا ثم لووا لجم الخيل وولوا الأدبار يطلبون النجاة من
سيف المهلل ومن حوله .

كانت فتيات بكر عند ذلك في آخر السهل يسمين سمياً

حيثما ليدركن قومهن الذين أسرعوا في آثار تغلب المهزومة ، وفيما هن في سيرهن أبصرن فرسان بكر مقبلين نحوهن منهزمين وقد تصدعت صفوفهم وتشتت شملهم ، وخيول المهلهل في آثارهم تصيح : « واكليباه ! » .

فوقفن صفاً في طريق الخيول المقبلة ، وخرجت ابنة الفند إلى صدر الصف ، وصاحت : « إلى أين يا خفاف القلوب ؟ » .
وأخذت تشد نشيداً والفتيات ينشدن وراءها :

إن تقبلوا نعانق وفرش النمارق وندهن المفاقر
إن تدبروا نفارق هراق غير وامق عرس المولى طالق
والمار منه لاحق

فاضطرب الفرسان أن يقفوا خوف أن يطاؤوا الفتيات بخيولهم ، ثم سمعوا نشيدهن ، فثارت كرامتهم وأحسوا الخجل من هزيمتهم ، ودعا بعضهم بعضاً للثبات ، ووجد القواد فرصة لتثبيت القلوب ، ولم الشعث ، وثنوا أعين الخيل إلى وجه العدو اللاحق بهم وتقدموا إلى لقاء المهلهل ومن معه وكان أعنف اصطدام وأشد قتال .
أدرك الحرث بن عباد قومه المهزمين بعد لآي ، وكان لم ينهزم معهم بل وقف في جماعة قليلة يحارب في موضعه الأول ، وجاء الشيخ الشجاع الفند بن سهل كذلك لما رأى أن مكان الحرب قد تحول ، وجعل يحرض قومه وهو يحارب في طليعتهم ، ورأى

الحرث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه في وسط فرسانه لا يدنو من
كتيبة حتى يفرقها ، ولا يقبل على جماعة حتى يشتتها ، فنظر حوله
وقال صائحاً : « هذا صيد كريم » .

ثم ركض فرسه النعامة متجهاً نحو الفارس المجهول ، وما هو
إلا قليل حتى كان عائداً وقد وصع الفارس الخفيف أمامه على ظهر
النعامة ، والبكريون يستقبلونه بصيحة فرح تملأ الفضاء . وما
كادت تغلب ترى المهلهل أسيراً حتى ولى فرسانها الأدبار وتعقبهم
فرسان بكر يتخطفونهم بالرماح .

وركض الحرث فرسه وأسيره أمامه ، وإلى جواره الفند بن
سهل حتى بلغوا مؤخرة الجيش فالتقى به على الأرض ووقف يتأمله .
وكان الفارس الأسير في عده كاملة من سلاحه ودروعه ،
لا يظهر منه إلا عينان تبرقان من وراء السيفر ، فلما ألقاه الحرث
على الأرض وقف مطرقاً كاسفاً ، فسأله الحرث : « من أنت
لا أم لك ؟ » .

فقال الفارس المقتنع : « أنا أسيرك » .

فسأله الحرث : « ما بال رمحك طويلاً ؟ » .

فقال الفارس : « لم ينف عن طوله » .

فقال الحرث ساخراً : « رمح الجبان طويل » .

فعلت ضجكة ساخرة من حوله ، واهتز الفارس من وقع

الإهانة ، ولكنه لم يتكلم .
ولما نحدث أصوات الضحك قال الحرث : « لقد حسبتك
المهلهل ؟ » .

فقال الأسير « وأنى لك أن تصيبه » .
فقال الحرث في غيظ : « وحق مناة لو رأيته ما نجا » .
فقال الأسير : « أريد أن تراه ؟ » .
فقال الحرث مسرعاً : « من أجله سمعنا إلى ههنا » .
فقال الأسير : « وماذا تفعل لو دللتك عليه ؟ » .
قال الحرث ساخراً : « أطلقك حراً » .
فقال الأسير متهمكاً وفي صوته اضطراب يسير : « ومن يكفل
لى صدقك ؟ » .

فظهر الغضب في وجه الحرث ، ولكنه أجاب في لهفة : « سل
من شئت أن يكفل لك صدق » .
فتقدم الأسير إلى الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، وكان إلى
جوار الحرث وقال : « أريد هذا ضامناً » .
فنظر الشيخ إلى الحرث متردداً ، فقال له الحرث : « اضمن
له يا أبا مالك » .

فقال الشيخ : « ضمنت لك وقاءه ، فمن أنت ؟ » .
فلم يجبه الأسير ، بل نظر إلى الحرث وقال له : « أريد أن
تري المهلهل ؟ » .

فقال له الحرث بمحمد : « نعم . قلت لك أريد أن أراه ، لأضع هذا السيف في قلبه » .

فزع الفارس بيضته عن رأسه وقال :
« هأنذا المهلهل ، فاقتلني إن استطعت » .

فأسرع الشيخ الفند بن سهل ووقف دونه خشية أن يسادر الحرث إليه فيقتله وينقض عهده في ضمانه ، فيلحقه من ذلك عار الأبدي .

وارتفعت مهمة في الجمع الملتف حول المهلهل ، بين صيحة غضب ، وأنة أسف ، وآهة حقد .

ووقف الحرث بن عباد قابضاً على سيفه وهو يرتعد من الغيظ وقال : « ثكلتك أمك أيها المخادع ! » .

فقال المهلهل ثابتاً : « الحرب خدعة » .

فنظر الحرث إلى الفند بن سهل وهو واقف بينه وبين أسيره وقال : « لقد هممت لولاك يا أبا مالك » .

ثم سكت وذهب بعيداً وجلس على صخرة وهو ثائر النفس ، وقد بدا على وجهه أثر الحقد والاضطراب ، ثم أطرق يتحدث نفسه ويئن من شدة الغيظ : « وابجبراه ! هل أهدر دمه وقاتله في يدي ؟ » .

والتفت الفند بن سهل إلى المهلهل وجعل يتأمل وجهه ويتفحص فيه ، ولم يملك نفسه من الإعجاب بمظهر ذلك البطل الدموي الذي

لم يضع سلاحه كل تلك السنين ، ولم يطمع في ثأره الهائل نصيحة ولا توسلاً ، وعلت وجهه برغمة ابتسامة خفيفة ثم قال له : « لا أبالي أن أنجو بحياتي كما أنجو يا مهلهل » .

فقطعت هذه الكلمة قلب المهلهل ، وأحسن صدق تأنيب الشيخ فقال : « ولكني أطيل حياتي لأطيل فيكم فتكى » .

فسمع الحرث هذه الكلمة ، فكأنما هو وحش رابض أغضبته . فأقبل مسرعاً وقد لمت عيناه بالشر . فأمرع الشيخ الفند فاعترض سبيله وقال له محدراً : « على رسلك يا أبا بجير . لقد ضمنته » .

فصاح الحرث ثأراً : « وحق مناة لا ينصرف عني هكذا » . وكان خبر أسر المهلهل قد ذاع في الجيش وانتشر حتى بلغ النساء في الحى ، فعلمت به أم الأغر زوجة الحرث ، فأقبلت تسمى في هلع حتى وقفت إلى جوار الشيخ ثم جعلت تتوسل إليه قائلة : « بمنى أخى ، امنن على به ؟ إن قتله لا يبعد ببجيرا بل يزيد قلبي جرحاً » . فتردد الحرث وهدأ غضبه قليلاً وتحرك متردداً ثم قال : « إذاً فليدلى على رجل من قومه أقتله ببجير » .

فذهبت أم الأغر إلى المهلهل ترجوه أن يفعل ما يريد زوجها حتى لا يفتك به ، وصمت المهلهل لحظة وهو مطرق ، ثم رفع رأسه وقد جال على وجهه ظل ابتسامة ، ولكنها كانت ابتسامة غلرٍ وحقد ، وأشار إلى أقصى الفضاء وكان فيه بعض فرسان من

أهل الحفاظ لا يزالون يتجاولون ويتحاربون ، وقال للحُرث :
« أترى ذلك الفارس صاحب الهامة الحمراء ؟ » .

فالتفت الحُرث بلهفة إلى حيث أشار المهلهل وقال : « نعم .
فمن هو ؟ وهل هو كفاء لولدى ؟ » .

فقال المهلهل : « هو امرؤ القيس بن أبان » .

فما كاد الحُرث يسمع اسم الرجل حتى وثب على النعامة وقصد
إليه ، وما هي إلا لحظات حتى صرعه وقتله ، وعاد راكصاً فرسه
يصيح : « لا خير في تغلب بعد امرئ القيس ، لأن فاتني المهلهل
بخداعه فقد اشتفيت بسيد تغلب وشيخها » .

ولم يخل وجه المهلهل من دلالة الارتياح عند ذلك ، فقد كفاه
الحُرث مؤونة ابن أبان وخلافه عليه ومعارضته لشيئته في قومه .
ولما أقبل الليل كان المهلهل طليقاً يسير كاسف البال ينبع آثار
قومه الذين ارتحلوا من قِضة هارين نحو الشمال ، وكان كلما مرَّ
بشعب من الشباب رأى جماعة يحملون صريماً أو يمينون على السير
جريماً ، ويسعون في آثار قومهم بعد الوقعة الطاحنة .

ولم يخل بيت في تغلب بعد يوم تحلاق اللهم من بكاء على
قتيل ، أو قطن ولهفة على حياة جريح . ولم يقف بهم السير في هربهم
حتى بلغوا أكناف السواد من أرض العراق ، خوفاً من غارات
بنى عمهم المنتصرين .

سار المهلهل من ممسك بكر بعد أن أطلقه الحرث بن عباد وهو يجرد رجله ، وكان الليل البهيم يلف الصحراء في رداءه الأسود ، فلا يظهر منها في ضوء النجوم الخافت إلا الأفق البعيد خطا متموجا غامضا . وكان يخيل إليه أن ذلك الليل الأسحم يهبط على الأرض فيثقلها ، ويهبط بها إلى أسفل في الفضاء الفسيح . كان رأسه يميل به ، وخياله يضطرب ، وأعضاؤه المتمبة المثقلة بالجراح تبض بالألم كأنها تنضج بالأنين . وكان قلبه أثقل على صدره من ذلك الليل يخفق في نخود وتباطؤ ، كأن ضرباته خبط ناقة عشواء ضالة في الظلام .

وجعلت صور حياته تتوارد على ذهنه سراعا ، كما تتوارد الصور على ذهن الغريق . لقد سار بقومه حيناً إلى النصر ، وساد فيهم ما ساد حتى كاد يبلغ فيهم مكانة أخيه كليب ، ومضت عليه السنون وهو يحرز النصر بعد النصر ، ويسفك الدم بعد الدم ، ولكن ذلك كله لم يرو غلته من الانتقام ، بل كان كلما زاد من القتل والظلم اشتد ظمؤه إلى القتل والظلم ، حتى صار القتال قصد حياته كلها ، فأنساه المجد والسلطان ، وأغلق قلبه عن الرحمة

والسلام ، ولم يُبق في قلبه موضعاً لمودة أورهام . ولم تخمد ثورته لما اعتراه من ضعف ، أو ما أصابه من هزيمة ؛ فقد كان وهو يجرد رجله بعد خروجه من معسكر الحرث بن عباد لا يزال يتمثل صور الطعنات التي يدخرها ، والضربات التي يعتزم أن يسدها ، والدماء التي يريد أن يسفكها . كان غليله الثائر لا يزال يضطرم في قلبه المكدود ؛ لم يزد الخذلان إلا عنفاً ، ولم تزد الهزائم إلا قسوة .

ومرت بذهنه صورة بجير بن الحرث ابن أخته المسكين ، وهو يتوسل إليه بالرحم أن يدعه فلا يسفك دمه بغير جريرة ، وتذكر صاحبه الشجاع امرأ القيس بن أبان ، وهو ينصحه ألا يمس الفتى البريء بسوء وهو ابن أخته ، وتذكر ما جره عليه قتل الفتى من مصائب ، بعد أن ثاب أبوه الحرث ثورته . تذكر هذا كله ، ولكن قلبه كان لا يزال يشتعل بالحقد والغِل ، فلم يحس ندماً ، بل علت وجهه المتعب بسمّة قاسية كأن ذكرى ذلك المنظر قد بمت فيه نشوة وارتياحاً . ثم تذكر امرأ القيس بن أبان وهو قتيل عند قضة ، وتذكر الخيانة التي زل إليها عندما أباح لحقده أن يخدعه ويملك عليه زمام نفسه فيجعله يدل عليه الحرث بن عباد ، ويشتري بالخيانة حياته . ولكنه لم يحس ندماً ، بل علت وجهه بسمّة قاسية أخرى ، واهتزت نفسه هزة تشبه أن تكون نشوة وارتياحاً ، فإن امرأ القيس كان يخالفه ، ويمصيه وينصحه ،

وما كان أحب إلى نفسه أن يتذكر منظره وهو صريع بيد
الحُرث أبي بجير .

وتنبه الملهل إلى نفسه في فترة من فترات الصحو بين هذه
الخواطر والوسوس ؛ فمجب لقلبه كيف تبدل حتى أصبح كأنه
يطيح شيطانا مشثوما يسوقه في سبيله ، ولكنه ما كاد يحس هذا
اللين يلم به حتى عادت إليه وساوسه وخواطره الدموية ، وغاب في
سيل من ذكريات ضرباته وطعناته .

ومرت في ضميره سائحة سريعة من الأسف والحجل عندما
تذكر خدعته التي خدع بها الحرث واستطاع بها أن ينجو بحياته ،
وعندما تذكر ما قاله له الشيخ الشجاع القند بن سهل ، إذ قال له :
« ما أبالي أن أنجو بحياتي كما نجوت يامهلل ! لقد كانت سخرية
مرة فيها تأيب وفيها ازدراء ، وما كان أحراه أن يربأ بنفسه عن تلك
المذلة ، ولا يشتري الحياة بذهاب الكرامة ؛ ولكنه أغمض عينيه
وهز رأسه بعنف كأنه يريد أن يبعد عن نفسه تلك الخاطرة المزججة ،
وجعل يحمل نفسه على تأمل ما يأتي به الغد القريب من وقائع
جديدة يجد فيها شفاء جديداً من غليله ، وفرصة أخرى ينكل
فيها بعدوه ، ويسفك سيلاً آخر من دمانه .

مضى الملهل في صحبة هذه المواجس المظلمة الشائرة ، كأنه
كان يحاول أن يخنق فيها عن نفسه ، وأنس إلى ذلك الظلام الثقيل

الذى حوله ، وجعل يتنقل من موضع إلى موضع ، ويفتح صدره
لنفحات الليل الرطبية الباردة ، لملها تطنقُ النيران الثائرة فيه ،
وجعل يتأمل النجوم ويحادثها ، تلك النجوم الأبدية التى طلعت
على الأجيال جيلا بعد جيل ، واطلمت على اضطراب الإنسان أبد
الدهر الطويل ، ثم شهدت فناءه طبقة بعد طبقة ؛ وخيل إليه أنها
فى لآلئها تضحك ساخرة منه ، أو أنها تضحك ساخرة من ذلك
النصر الذى ظل يضطرب من أجله كل تلك السنين ، فإذا به ينهار
كما تنهار الرمال ، ولم يترك فى قلبه إلا تلك الوخزة الأليمة التى كان
يحسها كلما تذكر أخاه البطل كلييا القتيلى ؛ نعم فإن الجرح الذى
أصاب فؤاده من مقتل أخيه كان لا يزال مع مر السنين جرحاً
دامياً وجيماً .

أخذ السير يعرج به فى شعاب الفلاة ، حتى انتهى به أخيراً
إلى رُشْب خفى فى ثنايا واد عميق ، فسمع به حساً ينبعث مثل
أصوات فى الحلم . حساً خفياً مضطرباً غامضاً .

فسار فى حذر إلى طرف الشعب من وراء ثَنِيَّة الوادى
وكان الظلام فى داخل الشعب أكَثَفُ حُلْكَة من الليل ، فلم يستطع
أن يتبين أحداً من الجلوس ؛ فوقف وراء صخرة خوف أن يكون
هناك بعض أعدائه . وأصاخ بسمعه إلى الحديث وجعل يجهد
نفسه فى تمييز الأصوات وتعرف جرسها ونبراتِها وخيل إليه أنه

يعرفها . لقد سمع تلك الأصوات من قبل ، فهي بلا شك أصوات
شبان من قومه ، كانت ترتفع في نوادي تغلب لكي تنصره وتهتف
باسمه وتحيطه بضجة تشبه أن تكون من ترتيل العبادة والتقديس .
واستمع إلى الحديث ، وكانت الأصوات واضحة في سكون الليل
يزيدها وضوحاً هدوء الهواء . وما كاد يقف هناك لحظات حتى كان
جسمه يتفصد عرقاً . كان الجدال عنيفاً ، ولكنه لم يكن بين جانبيين
يتنازعان ؟ بل كان بين عصبة مجمعة على لومه والحق عليه وإن
تجادلت في تقدير جرائره .

قال أحدهم : « لقد نصحه امرؤ القيس ألا يقتل بجيراً فلم يطمعه
بل قتل الفتى المسكين ظمأ ولم يشفق من خبيعة أخته أم الأغر فيه » .
وقال آخر : « ولكن أدهى من ذلك أنه لم يستطع أن يقف
للحرث بن عباد ولم يمنع نفسه منه . ألم تروه وهو يحمله أسيراً على
فرسه ويمدو به وهو ملقى على ظهر جواده كأنه صبي ؟ أي عار جلب
هذا الزير على قومه ! »

وقال ثالث : « ولا أشك في أنه هو الذي دل الحرث على ابن
أبان ليقتله . لقد سمعت بعض بني بكر يتحدثون بهذا وأنا مختلف
في الكهف عقب الهزيمة . لقد قالوا إنه دل الحرث على ابن أبان
سيد تغلب . وما أراد بخيائته إلا أن يشفي حقه من شيخنا
الباسل الذي كان يجادله ولا يبتنى إلا خيركم » .

فملت من الجمع صيحة إنكار ، وقال أحد الجلوس :

— أو سمعت هذا يا ابن الأجدع ؟

فقال الشاب : « سمعت هذا بأذني هاتين ، وسيأتيكم مصداق قولى إذا رأيتم المهلهل غداً يسير فى آثاركم . فقد منّ عليه الحرث وأطلقه بعد أن خان له سيد تغلب ثمناً لحياته . نعم لقد اشترى حياته بالعار والخسة » .

فمادت الضجة أعلى وأعنف ، واختلطت بها الأصوات ، وتطايرت فى ثناياها ألفاظ الحق ، وكان اسم المهلهل يتردد فيها مع أقذع السباب . ثم تجرأ أحدهم فقال : « إنه قد سفك دماء فى سبيل دم أخيه الطاغية ، وسربا وراه كهولا وشباناً ، وها هو ذا يخوننا ويدل أعداءنا علينا فكى ينجو بحياته » .

فصاح الجمع مضطرباً :

— « القتل له ! القتل للمهلهل ! القتل للخائن الجبان ! » .

فلم يطق المهلهل البقاء ، وتنحى عن موضعه مسرعاً ، وسار وحده وهو لا يدري ماذا يرى من أمامه ، يتعثر من الاضطراب وقلبه جائش بالألم ورأسه مضطرب بما فيه من الهموم ، حتى إذا اقترب وهو يترحم من خيام قومه قصد إلى خيمة الهجرس ابن أخيه ، وناداه فى احتراس من باب الخباء . فتنبه الهجرس وخرج إليه مسرعاً ، وعرفت سلمى زوجة الهجرس صوت أبيها

المهلل فخرجت إليه متلهفة .

فلما وقع نظر المهلل عليهما أشار إلى المجرس ليتبعه ، وأشار إلى سلمى أن تدخل الخباء في صمت ، ثم مضى مع ابن أخيه حتى خرجا من بين الخيام وذهبا إلى جانب كثيب من الكثبان القريبة فاستترا وراءه وجعلا يتحدثان .

لم تمض بعد ذلك الاجتماع ساعة حتى كان المهلل والمجرس يستعدان للنزوح عن قومهما ، وقد عزم المهلل عزماً لا يتزعزع على أن يترك جوار قوم حدث بمضهم بعضاً بسبه وتنادوا بقتله ، وخاض جماعة منهم في عرضه وشرفه ، وانتقصوا منه وتآمروا عليه . ولم يصحبه في عزيمة الرحيل إلا طائفة ضئيلة من أهله وعبيده .

وداعت في حل تغلب بعد حين ذائعة من نبا رحيل المهلل ، فأسرع جمهور من شيوخها وكهولها إليه ليردوه عن قصده ، ويحاولوا الاعتذار عما أجرم بعضهم في التطاول عليه ، فلم يُجِدْهم ذلك ، وأصر المهلل على المسير عنهم بأهل بيته .

وفي بكره الصباح التالى اجتمع الناس رجالا ونساء لينظروا إلى بطلهم النظرة الأخيرة ، ولم يملك المهلل وهو يلقى عليهم آخر نظراته إذ ينحدر في سيره وراء الكثبان البعيدة أن يمسح دمة غلبته ، دمة الأسى على فراق قوم طالبا شاركهم وشاركوه في مخاطر الحروب وفي نشوة النصر وفي كسرة الهزيمة .

بعد عامين من ذلك اليوم كان المهلهل يسير وحيداً ، لا رفيق له ولا أنيس ، بعد أن قُتل ابن أخيه الهجرس في غزوة من غزواته ، وبعد أن قُتل رفاقه القلائل واحداً بعد آخر في مصادماته العدة مع القبائل التي كان يمر بها . وهان أمره في القبائل حتى اضطر إلى تزويج ابنته الجميلة سلمى مرغماً صاغراً من غير أ كفاءها . ولم يستطع في ضعفه أن يعاقب خاطبها الجريء ، بل أجابه إلى زواجها وقلبه يتحرق ، والعجز يخرس لسانه . وأخذ يضرب في الأرض بعد ذلك وحيداً إلا من عبيدين وراحتين وفرسه المحبوب « المشهر » وسيفه ودرعه التي آلى على نفسه منذ أعوام طويلة ألا يخلعها عن جسمه .

كان المهلهل بعد عامين من تلك الحياة المضطربة يسير وحيداً في صحبة عبيديه ، يريد النزول إلى جوار ماء من مياه هجر ، بعد أن جفت بقايا الأمطار في القفر الذي اتخذ موطناً . فمر في أرض ينزل بها جماعة من بكر — من بني قيس بن ثعلبة قوم الحرث بن عباد . فسمع عوف بن مالك كبير القوم بمروره وخشى أن يكون قد أقبل عليه مغيراً يطلب غرة فيستاق من الأموال والنعم ما يجد

ثم يمضي سريماً كما كان يفعل كلما مر بقبيلة من بكر . فأرسل إليه كتيبة صغيرة ترصد له ، حتى إذا ما اقترب منها وقفت تمترض سبيله ، فأسرع العبدان إليه خائفين وقالوا هما يرعدان من الخوف : « هذه جماعة من بكر ! » . فنظر إليهما المهلهل كاسفاً وقال كأنه يخاطب نفسه : « أين منى الأحرار ؟ » ثم صاح بهما وقد أشرع رمحهُ : « تنحيا عني لا أبالكما ! » .

ومضى في سبيله والعبدان يسيران خلفه في بطء ، وقد انخلع قلباهما . حتى إذا ما صار عند القوم أراد أن يخترق صفهم لا يلتفت إلى يمين ولا إلى يسار ، وغمز فرسه المشهر في جنبه فاندفع مسرعاً حتى خالط الصف ، وأوشك أن ينفذ من بينهم . فثار البكريون لهذه الجرأة واختلطوا سيوفهم واندفعوا إليه فأحاطوا به من كل جانب ، ولكنهم لم يمسه . فقد كان أمر عوف بن مالك أن يمودوا به أسيراً .

ومضى المهلهل في سبيله ورفع الرمح فأهوى به على أقرب فارس منه فطمنه في صدره فألقاه صريماً . واضطربت الجماعة لحظة ، تمكن المهلهل في خلالها من أن يخرج من دائرتها ، وأشرع الرمح مرة أخرى وأهوى به على فارس آخر يقصد قلبه ، فتلقى الفارس طعنته في مجنه ، وأسرع الفرسان فالتفوا حوله مرة أخرى ، وضرب أحدهم رمح المهلهل بسيفه فقصمه وصاح قائلاً : « أسلم

ففسك قبل أن نزيل هذا الرأس الأحق عن جسدك .
فتكبر المهلهل أن يرد على الرجل ، وأسرع كالبرق فاستل
السيف وأهوى به على رأس مخاطبه فأرداه عن فرسه .
فاستشاط الفرسان غضباً واندفعوا نحوه من كل جانب يضربونه
بسيوفهم وهو يرواغهم ويتقى ضرباتهم ما استطاع ، يتلقاها على
مجنه تارة وعلى درعه تارة أخرى ، حتى ظن القوم أنه قد أعجزهم ،
وعولوا على الفتك به فتضامحوا : « لا تبقوا على الوغد ! » .
ولكن المهلهل قاوم ودافع ، حتى كاد يأتي على آخرهم لو لا
جراح أصابته نزت منها دماؤه فأضعفته عن المقاومة ، ومال عن
سرجه خائر القوى ، ولا يزال السيف في يده يقطر من دماء
بني بكر .

فوجد بقية الفرسان عند ذلك فرصة أمكنتهم منه ، فأحاطوا
به واستطاعوا أن يحملوه إلى عوف بن مالك وهو بين الحياة
والموت .

قضى المهلهل في أسر عوف أشهراً يرسف في قيوده ، ولا يجد
سلوة إلا في التنفي برثاء أخيه ، أو تذكر وقعاته في بني بكر .
ولم يكن أحد يجرو أن يدنو من خيمته إلا امرأة الشيخ عوف
ابن مالك وهي من بنات خؤولته اسمها « جيبة ابنة الجبل » —
امرأة شابة جميلة حلوة المينين عذبة الحديث — عطفت على المهلهل

أشد المطف في محنته ، أكثر مما كانت تكبر بطولته في حروبه . فكانت تحمل إليه كل يوم طعامه وشرابه ، وتحادثه وتروح عنه ، وكان المهلهل يأنس إليها حيناً ويعرض عنها حيناً ، ويقبل منها طعامها يوماً ويرفضه أياماً ، وهى مع كل ذلك دائبة على العناية به والترفق في أمره .

وجاء يوماً رجل من أتباع عوف فدخل عليه خباءه وهو باسم كأنه قد جاءه يبشرى ، وقرب منه فجعل يحل وكأفه ، وهو مطمئن إلى شكره وعرفانه . ولكنه ما كاد ينتهى من إطلاق يمينه من قيدها حتى بادره الأسير العنيف بضربة على أم رأسه كاد الرجل يخرج منها صريعاً ، فارتد مسرعاً وهو يتطوح ، حتى إذا ما صار على باب الخيمة صاح به حانقاً : « ما الذى حملك على هذا ؟ وأى جزاء تجازينى على فك قيدك ؟ » .

فرد المهلهل بصره عنه متكبراً ولم يجب .

فذهب الرجل عنه مسرعاً فى غيظ شديد ، وتى المهلهل صامتاً ينظر إلى أثر حز الحبال المتينة فى معصميه ، وفيما هو يتغنى حزينا يخاطب نفسه بوصف ذلك الأثر ، أقبلت عليه جنية ابنة المجل ، وهى تنظر نحوه نظرات موزعة بين الإنكار والترفق .

فلما صارت قرية منه قالت فى رفق : « لم ضربت الرجل وقد أتى بفك وكأفك ؟ » .

فنظر إليها المهلهل والآن من نظرتة ثم قال : « وما الذى حمله على فك ذلك الوثاق ولم يستأذننى قبل فكه ؟ لئن كنت أسيراً فإننى لا أزال أملك هذا القيد من أمرى » .

ثم جعل ينظر إلى ممصميه ويحدث نفسه وينشد من شعره فى بكاء كليب . . .

فقالت حبيبة فى نفمة اعتذار : « لقد بعته إليك ابن عمك عوف ابن مالك وأمره أن يفك قيدك ، وما كان يحسب أن ذلك يسوؤك ، وما يقصد من ذلك إلا التودد إليك ، لملك تأنس إليه . وقد جاءه اليوم قوم من بنى عمك فأحبوا أن يأتسوا بك .

فتجههم وجه المهلهل وعقد ما بين عينيه وقال وقد لمع الشر فى نظراته : « وهل كنت لابن عوف نديماً ؟ » .

فقالت المرأة ولا تزال فى نعمتها رنة الاعتذار : « لا ! ولكنهم يدعونك للمؤانسة . وهل عليك خير فى مجالسة قوم من بنى عمك ؟ » .

فأدار المهلهل وجهه عنها وقال مغمماً : « ليس المهلهل بمن يسمى إلى أحد » . ثم جلس فى ركن الخيمة ، وجعل يتفنى حزينا بمراثيه فى أخيه .

فأرأت المرأة أن مراجعة القول لن تجديها شيئاً ، فانصرفت فى صمت وتغنى المهلهل يتفنى ناظراً إلى أثر القيود فى يده .

بعد قليل أقبل ابن عوف ومعه ضيوفه ، حتى وقفوا على باب الخيمة . وتقدم شيخ كبير منهم فقال باسمًا : « أتأذن لى يا ابن الكرام ؟ » .

فنظر المهلهل نحوه حيناً وهو لا يميزه ، وغاب لحظة فى تفكيره ثم علت وجهه ابتسامة ضعيفة مترددة ، وقال بصوت خافت : « الفند بن سهل ؟ » .

فقرب الرجل منه وقال وهو واقف إلى جانبه : « نعم الفند ابن سهل . أبيت أن تسمى إلينا فسمينا إليك » .

فاعتدل المهلهل مرتاحاً إلى حديث الرجل ، ونادى الفند يخاطب إخوانه الواقفين دون باب الخيمة فقال : « لا بأس عليكم يا قوم ، قد أذن لنا المهلهل » .

فدخل القوم وجلسوا فى جوانب الخيمة ، ودخل معهم عوف ابن مالك ، فانتحى جانباً وهو صامت .

وتبسط المهلهل فى حديثه مع الفند ، ثم امتد الحديث إلى سائر الجالوس ، وكأن المهلهل قد نسى ما هو فيه من أسر وضيق وذل ؟ فجعل يحدث القوم ويرحب بهم ويؤانسهم بالتحية كأنهم ضيوفه ، وكأنهم قد تزلوا عليه فى بعض رحابه .

وبعد ساعة جاءت جفان اللحم والثريد ، ووضعت السنام

مشوية مع الكبد في صحفة جمعت بين يدي المهلهل ، وحملت الخمر فأديرت على الحاضرين في كؤوس من نحاس ، وأقبل الجميع على السمر في خيمة المهلهل كأنهم في وليمة حافلة .

هكذا أراد الضيوف ، ولم يستطع عوف بن مالك أن يضمن بمطلب طلبه منه زائرؤه .

وأراد المهلهل أن يمتنع عن مشاركة القوم في شرايهم برأ بقسمه الذي أقسمه عند قتل أخيه . ولكن شيئاً غلبه على امتناعه فجعله يرضى بمقاسمة القوم شرايهم . أ كان ذلك ليأسه من متابعة النضال ؟ أم كان لاقتناعه بأنه قد أدرك ثأر كليب ؟ أم كان لأنه لم يقدر على مقاومة إغراء رائحة الزقاق التي حرم مذاق راووقها الصافي تلك السنين العدة بعد أن كان لا يصبر عنها يوماً ؟ مهما يكن من ذلك فقد أقبل على الشرب وانحلت منه عقدة الهم ، وعاد اللون إلى وجهه ، وابسطت أساريه ، وكسته ابتسامة وديعة ، وضرب مع الجلوس في الحديث .

وتحدر السمر وتصعد في شعاب وشجون ، وكان القوم يصفون في شوق إلى أقوال المهلهل ويستملحون قصصه ويستعذبون أشهاره ، ثم دارت الخمر في رأسه فتدفق في إنشاده وأنساب في حديثه حتى صار هو وحده متكلم القوم . ولكنه لم يلبث أن نسي موضعه وحاله . وجمل يتذكر مواقفه في بكر ، وينشد من

أشعاره مفاخرأ بقومه ، متغنياً بمن قتل من سادات بكر وشيوخ
قيس بن ثعلبة .

ثم قام في حماسة كأنما قد خيل إليه أنه واقف في صفوف تغلب
يذمرهم للحرب ويحرضهم على الاستبسال في الهجوم ، وأخذ يشير
بيديه ناظراً إلى الفضاء الفسيح الذي دون الخيمة وجعل ينشد :
شفيت النفس من أبناء بكر وحكت برّ كهها بيني عباد
إذا ما الخيل بالأشكال جالت وفي كباتها الأسل المصاد
ونار القمع بينهم وثارت لها أسد على أسد عواد
بضرب تشخص الأبصار منه وطمن مثل أفواه المزداد
فنظر إليه الجالوس ووجوا ، ثم نظروا إلى عوف بن مالك فإذا
به مربدّ الوجه ، محمّر المينين ، وإذا به يقبض على سيفه وينفث
من غيظه كما تنفث الحية .

وأراد أحد الضيوف أن يخفف من وقع الأمر ، فقال للمهلhel
في لهجة المداعبة : « ألا تقول لنا شيئاً من غزلك يا مهلهل ؟ » .
ففضى المهلهل كأنه لم يسمع قول الرجل ، وتحولت رنة صوته
حتى صارت كأنها صيحة حرب وقال :

رب خيل لقيتها لا أبالي	حيث ألقى كباتها مغوارا
إننا معشر إذا ما غضبنا	ضاقنا الأرض نقتنى الآثارا
إن أقنا أقامت الناس طوعا	أو أردنا الحروب سرناجهارا

وعند ذلك لم يطلق عوف بن مالك صبراً؛ فنهض فجأة وصرخ قائلاً: «أيفخر المبد علينا في ديارنا؟» .

ثم خرج وهو يضطرب من الفيظ، وقد وضع يده على مقبض سيفه وسار يخطو خطواً سريعاً حتى بلغ خيمته، وسار القوم جيماً في أثره وتركوا المهلهل قائماً وحده ينشد ويتغنى، ويفخر بما أنزل بالبكرين من ويلات .

حاول الضيوف أن يعتذروا إلى عوف عما سببوه له من الإهانة، وأرادوا أن يخففوا عنه وقع أشعار المهلهل . ولكنه لم يسكن، بل استمر على اضطرابه وصخبه في فناء خيمته وهو يسير ذهاباً وجيئة في هياج .

ثم وقف فجأة وقال: «لقد كان أولى لنا لو تركناه في قيوده، ولكن هذه الرقة التي حملتكم على مجالسته قد حرضته علينا . وهأنتم أولاء سمتموه يتغنى بسب قومي . وحق مناة ليموتن أشنع ميتة ماتها رجل إلا يذوقن طاماً ولا شراباً حتى يرد زبيب!» .
وكان زبيب فحلاً قويا من الإبل لا يرد الماء إلا كل عشرة أيام .

في الليلة الثانية بعد ذلك اليوم كانت جبية ابنة المجلل تسير في الظلام خلصة وهي خائفة والهة، حتى بلغت خيمة المهلهل، فنظرت حولها خشية أن يراها أحد، فلما لم تجد أحداً دخلت

مسرعة حتى جاءت إلى الأسير وجعلت تفك قيوده وتقطعها بسكين أخرجتها من طيات ثيابها .
ونظر إليها المهلهل متعجبا أول الأمر ، ثم سألها في دهشة :
« ماذا تفعلين يا أم عمرو ؟ » .

فقلت المرأة هامسة : « قم ! أسرع ! أسرع قبل أن تهلك » .
فلم يتحول المهلهل من موضعه بل سألها : « ماذا تقصدين ؟ »
قالت جيبة : « قم ! إنك لن تذوق طعاما ولا شرابا حتى يرد
زيب . إنك هالك لا محالة ! هكذا حلف عوف بن مالك . قم !
أسرع ! » .

ولكن المهلهل بقي في موضعه لم يتحرك . فمضت المرأة وقبضت
على ذراعه وحاولت أن ترفعه وتدفعه وهي تهمس في هلع : قم !
فجذب المهلهل نفسه بمنف وقال : « اذهبي عني ، لن أشتري
حياتي بالذلة مرتين ، أأهرب حتى أجعلك فداء وأنستر من ورائك
لكي تلاقى غضب زوجك الحائق عني ؟ » .

فوقفت المرأة متعجبة حيناً ، وأرادت أن تعاود الكرة عليه
في الإلحاح ، فنظر المهلهل إليها واجما وقال : « قلت لك اذهبي
عني ، اذهبي قبل أن أصبح في الحى منذراً بمكانك » .
فلم تجد جيبة بداً من الذهاب وخشيت اقتضاح أمرها ،
فأسرعت راجعة إلى خيمتها وهي تترجح بين الغضب والخيبة .

لم يسمح عوف بن مالك لأحد أن يذهب إلى خيمة المهلهل إلا بعد أن ورد زيب ، بعد عشر ليال . ثم ذهب إليه ليراه فإذا به قد هلك من الجوع والمطش . ولم يملك نفسه عندما وقعت عينه عليه من أن يخشع ويحزن كما يخشع الصائد وهو يرى الأسد صريعا . ووقف ينظر إلى عبديه وهما ينزعان عنه دروعه لأول مرة بعد أن بقيت على جسده سنين طويلة لم يخلعها ، وكانا كلما نزعاً منها قطعة صحبتها رقعة من جلده الذي لصق بها . ولكنه عندما نظر إلى يديه ورجليه لم يجد فيهما قيلاً ولا وثاقاً قصاح بالعبدین قائلاً : « من نزع القيد والوثاق عنه ؟ لقد أردت أن أدفنه في قيوده » . فنظرا إليه حائرين ولم يجيبا .

فرفع يده بالسيف إلهما مهدداً وكاد يهوى به عليهما ، فدخلت امرأته عند ذلك مسرعة ، وهي تصرخ : « لا تفعل يا أبا عمرو ! لا تفعل ! » .

فنظر الرجل إليها متعجباً وقال في غضب : « خلى سبيلى مالك والعبدین ! » .

فقات المرأة في هلع وهي مندفعة اندفاع اليأس : « لقد فككتها أنا ! أنا التي فككت قيوده » .

فصاح بها الرجل الخفيف قائلاً : « أنت ؟ أيها الخائنة ! » . فتعلقت به المرأة باكية وقالت : « أليس ابن عمى ؟ رأيت به

يموت فلم يطاوعنى قلبى أن أرى بطل تغلب يتلوى بصارع الموت
جوعا وعطشا ، خللت قيوده وتضرعت إليه أن يهرب » . ثم
سكت لحظة وأجهشت بالبكاء وقالت فى نשיجها : « ولكنه أبى
وآثر الموت » .

فسكن غضب عوف قليلا ، ثم قال فى دهشة : « لم يرض
أن يهرب ؟ » .

فقال المرأة باكية : « لقد أبى ، وقال لا أشتري الحياة
بالذلة مرتين » .

فوقف عوف صامتا لحظة ، ثم وضع سيفه فى قرابه ، ونظر
إلى المهلهل نظرة طويلة ، وجعل يتأمل جسمه الضعيف النحيل ،
وجلده المقطع ودرعه التى علاها الصدا ، ثم تنفس نفساً عميقا ،
وقال فى حزن : « أبى المهلهل إلا أن يموت كريما ! مات
سيداً ربيعة » .

ثم أشار إلى العبدى أن يترفقا بالجسد المحطم الذى يجهزانه ،
وذهب إلى قومه لينعى إليهم المهلهل ، ويستعد لإقامة المأتم لعدوه
البطل . ولم يرضن عليه ~~بدمية جسيمة~~ ^{بدمية جسيمة} منصرف من باب
خيمته الساكنة

